الذخائر
١٤٦

الخصائص

صنعة
أبى الفتح عثمان بن جنى

بتحقيق
محمد على النجار

قدم هذه الطبعة
د. عبد الحكيم راضى

الجزء الأول

الهيئة العامة لقصور الثقافة

طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية

سلسلة
الذخائر

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد نوار
أمين عام النشر
د. أحمد مجاهد
الإشراف العام
محمد أبو المجد

- الخصائص (الجزء الأول)
- تأليف: أبى الفتح عثمان بن جنى
- تحقيق: محمد على النجار
- هذه الطبعة:

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - ٢٠٠٦م
(نسخة مصورة عن طبعة دار
الكتب المصرية ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م)
٥٢٠ ص - ٢٣٫٥ × ١٦٫٥سم

- تصميم الغلاف: محمد بغدادى
- رقم الإيداع: ٨٨٥١ / ٢٠٠٦
- الترقيم الدولى: 977-305-894-8
- المراسلات :

باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى : ١٦أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١
ت : ٧٩٤٧٨٩١ (داخلى : ١٨٠)

- الطباعة والتنفيذ :

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

الذخائر
١٤٦

تعنى بنشر نفائس التراث العربى بالمستوى الذى يحقق رغبة القارئ المعاصر من حيث التحقيق العلمى وحيوية المضمون المعرفى.

- هيئة التحرير -

رئيس التحرير
أ.د عبد الحكيم راضي
مدير التحرير
جمال العسكرى

مستشارو التحرير

أ.د. السباعى محمد السباعى   أ.د. عبد الله التطاوى
أ.د. حسنين محمد ربيع   أ.د. عبده على الراجحى
أ.د. حسين نصار   أ.د. محمد حمدى إبراهيم
أ.د. محمد عونى عبد الرؤوف

- حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
- يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

الخصائص

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الفكر البلاغي في كتاب الخصائص

نعم .. يا له من قرن ! ويا له من عبقريّ ! أما القرن فهو القزن الرابع الهجريّ ، وأما العبقرى فهو أبو الفتح عثمان بن جنىّ ت٣٩٢هـ ، صاحب كتاب (الخصائص) الذى تقدمه (الذخائر) لقرائها بعد أن قدّمت لهم (صبح الأعشى) للقلقشندى مشفوعاً لأول مرة بمجلدى المصطلحات والفهارس ليصل عدد مجلداته إلى ستة عشر مجلداً فى أول طبعة كاملة للكتاب مع فهارسه ومصطلحاته .

وتسألنى - عزيزى القارئ - عن سرّ العَجَب من القرن الرابع الهجرى وسرّ التعجّب ، أو - بالأحرى - الإعجاب بأبى الفتح بن جنى ، أما العجب من القرن الرابع⁽¹⁾ فأجيبك بما قاله طه حسين من أنه القرن الذى شهد ضعف الدولة العربيّة وتفككها إلى دويلات صغيرة ، ومع ذلك فقد شهد ازدهاراً رائعًا فى شتّى فروع العلم والأدب نتيجة للتنافس بين تلك الدويلات فى تشجيع مختلف العلوم والآداب⁽²⁾ ، يكفى أنه القرن الذى حوى من الشعراء أمثال أبى بكر الصنوبرى ت٣٣٤هـ ، وأبى الطيب المتنبى ت٣٥٤هـ وأبى فراس الحمدانى ت٣٥٧هـ وابن نباتة السعدى ت٤٠٥هـ والشريف الرضى ٤٠٦هـ . ومن الكتاب أمثال أبى الفضل بن العميد ت٣٦٠هـ وأبى بكر الخوارزمي ت٣٨٣هـ وأبى إسحاق

---

(١) لقد سبقنى إلى التنويه بالقرن الرابع والنهضة العلمية الشاملة فيه أستاذنا الدكتور محمود على مكى وذلك فى تقديمه لطبعة الذخائر من كتاب (معجم الشعراء) للمرزبانى ، كما أشار إلى رأى مماثلٍ للمستشرق السويسرى آدم ميتز فى كتابه (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع) تنظر ص١٠ من التقديم المذكور .

(٢) ينظر : فى الأدب الجاهلى ٤٩ ط دار المعارف ١٩٥٢ .

الصّابى ت٣٨٤هـ والصاحب ابن عبّاد ٣٨٥هـ وبديع الزمان الهمذانى ت٣٩٨هـ وغيرهم ، كما حوى من النقاد أمثال ابن طباطبا العلوى ت٣٢٢هـ وقدامة ابن جعفر ٣٣٧هـ والآمدى ت٣٧٠هـ وأبى أحمد العسكرى ت٣٨٢هـ وأبى على الحاتمى ت٣٨٨هـ والقاضى الجرجانى ت٣٩٢هـ وأبى هلال العسكرى ت٣٩٥هـ، وأما من اللغويين فقد حوى أمثال أبى سعيد السيرافى ت٣٦٨هـ وأبى منصور الأزهرى ت٣٧٠هـ وابن خالويه ت٣٧١هـ وأبى عَلى الفارسى ت٣٧٧هـ وأبى الفتح عثمان ابن جنى ت٣٩٢هـ وأبى نصر الجوهرى ت٣٩٨هـ.

* * *

هو إذن قرن التألّق والازهار فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ولا شك أنه يستمد هذا الوصف من مجموعة الأعلام والمبدعين الذين امتدت أعمارهم على صفحات سنواته ، وفى مقدمة هؤلاء من العلماء أبو الفتح بن جنى ومن المبدعين أبو الطيب المتنبى . وهى مصادفة شديدة الغرابة ، لا لأن شاعراً مبدعاً ومنظّراً متمكّنا تصادف التقاؤهما فى بلاط سيف الدولة ، ولكنْ لأن فى كلّ من هذين الرجلين ما يكمّل الآخر ، أو لنقل : فى كلّ منهما جزء من طبيعة الآخر. فالمتنبّى مبدع ، ولكنه مغْرًى بالتقاط بعض الأصول النظريّة من مجالات النحو واللغة والبلاغة وغيرها وتحويلها إلى ذوب شعرىٍّ رائق فى كثير من الأحيان ، وانظر ـ على سبيل المثال ـ قوله :

نحن أدرى ـ وقد سألنا ـ بنجدٍ   أطويلٌ طريقنا أم يطولُ
وكثير من السؤال اشتياق   وكثير من ردّه تعليل

ثم انظر قوله فى مدح عضد الدولة :

وقد رأيتَ الملوكَ قاطبةً   وسرتُ حتى لقيتُ مولاها
أبا شجاع بفارس عضدِ الدوْ   لةِ فنّاخسرو شهنْشاها
أساميًا لم تزدْه معرفةً   وإنما لذةً ذكرناها

وهو فى الشاهد الأول صريح فى القول بأن الاستفهام يخرج إلى معان أخرى غير معرفة الجواب ، منها شدة الشوّق إلى ذكر المسئول عنه ، وبالتالى فإن الغرض من الجواب لا يكون دائما إفادة معرفة جديدة ، إذ قد يكون الغرض منه تسلية السائل وتصبيره وتهوين المسافة عليه .

أما فى الشاهد الثانى فواضح أنه يصدر عن قيمة أخرى هى تكرار الاسم التذاذاً بذكر المكرَّر وزيادة فى الثناء عليه ، قال ابن جنى تعقيبا عليِ البيتِ الثانيِ : إنه على قصر وزنه « قد جمع فيه كنية الممدوح وبلده واسمه ونعته وسمّاه بملك الملوك ، وهو من أحسن الجمْع والمدح » ثم قال عن البيت الثالث (أساميا لم تزده ...) : « هذا كلام النحويّين فى أحد ضربِى الوصف تناوله منثوراً فنظمه ، وذلك أنهم يقولون : إنما يذكر الوصف للاسم إمّا للإيضاح كى يتميّز عن غيره ... وإما للإطناب والثناء كقولنا (باسِم الله الرحمن الرحيم) فالوصف هنا لم يجئ للإيضاح ... وإنما ذكر للإطناب فى الثناء ، وكذلك قوله (أساميا لم تزده معرفة) »(١) .

ولا يقتصر الأمر على هذين الشاهدين ، هناك الكثير من المواضع التى وقف فيها المتنبى داعمًا شعره بمعلوماته الغزيرة فى مختلف المجالات ، خاصة مجال النحو واللغة ، ومن هذا القبيل قوله فى المدح :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً　　مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازم

ومنه قوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه　　بأن تسعدا ، والدمع أشفاه ساجمه

ومنه قوله :

حولى بكل مكان منهم خِلَقٌ　　تُخْطِى إذا جئت فى استهامها بـ (مَنْ)

---

(١) ديوان المتنبى ـ حاشية الشارح ٤/ ٤١٠ .

هذا إلى ما سوف يلقانا من شواهد أخرى فى مستقبل حديثنا عن ابن جنى وخصوصية الجدل العلمى والفنّى بينه وبين المتنبى .

* * *

ما الذى جرّنا إلى هذا الحديث عن علم المتنبّى وصياغاته التقريريّة التى أودعها شعره مما وقف عنده فى أكثر الأحيان شارحه المفتون به أبو الفتح بن جنّى ؟؟

الجواب : لا أحدَ غيرُ ابن جنّى نفسه ، لقد سبق أن قلتُ إن ثمة شبها بين الرجلين ، وأن كلاً منهما يحمل بعض خصائص الآخر ، المتنبّى مبدع عالم ، وابن جنّى عالم مبدع ، وإذا كان المتنبّى قد اعتاد على صياغة بعض النظرات العلميّة فى ثنايا شعره ، فإنّ ابن جنى العالم المبدع كان مُغْرًى بالتقاط الكثير من شوارد الفكِر التى تحملها إبداعات الشعراء ليعقد المشابهة بينها وبين البعض من مسالك اللغة ، أكثر من ذلك أنه لم يكن يجد غضاضة فى أن يستنبط من هذه الأفكار بعض الأصول التى يتحمس لها ويُشيعها أو تشيع عنه فى محيط درسه اللغوى .

ولست أدرى لماذا أشعر بأنّ ثمة صلةً ما بين قول المتنبى فى التهوين من شأن عدوّ ممدوحه الذى تكثّر بولدين له فلم يزيداه إلاّ نقصا :

وكان ابنا عدوٍّ كاثراه   له ياءى حروف أنيْسيانِ(١)

وبين ما عقده ابن جنى فى (الخصائص) من (باب فى التامّ يزاد عليه فيعود ناقصاً)(٢) .

---

(١) يقصد أن كلمة إنسان تصغّر بإضافة ياءين فتصير أنيسيان ، فهى زيادة ترتّب عليها نقص .

(٢) الخصائص ٢/٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

وكذلك بين قول المتنبى أيضاً يمدح بالإفراط فى الجود :

ولجُدْتَ حتى كدتَ تبخل حائلا   للمنتهى ، ومن السرور بكاء

وبين حديث ابن جنى فى (باب فى التراجع عند التناهى) حيث يحتج ابن جنى لفكرته ويستشهد عليها بنفس البيت للمتنبى(١) .

ولعلنا ـ لو استقصينا ـ نجد الكثير من هذه الأمثلة التى يمكن حملها على كيفية خاصّة من التناص بين الرجلين اللذين كانا يصدران غالبا عن فكر واحد .

لم يكن المتنبّى شاعراً عادياً ، كما لم يكن ابن جنّى مجرّد لغوىٍّ عارفٍ باللغة وقواعدها معرفةً عاديّة ، لقد وصلتْ معرفته بها درجة الغوص فى أعماقها والوقوف على أسرارها والقدرة على تأليف شاردها واستئناس نافرها ولمح الشبه بين ما يبدو متباعداً من ظواهرها . وقد زاد على ذلك أن مدَّ بصره إلى تاريخ الأدب وحركة النتاج الأدبى عموماً ليسجّل بعض مظاهر التطوّر التى طرأت على أشعار المحدثين ، فهو يقدم بابه (فى التطوّع بما لا يلزم) بقوله : « هذا أمر قد جاء فى الشعر القديم والمولْد جميعا مجيئا واسعا »(٢) .

وفى حديثه عن (الاعتراض) يسجل كثرة هذا الفن فى شعر إبراهيم بن المهدى بالقياس إلى شعر غيره من المحدثين(٣) .

وخلافا للشائع المتواتر عن اللغويين من العزوف عن أشعار المحدثين يطالعنا ابن جنى برأيه فى جواز الاحتجاج بأشعار المولَّدين فى المعانى ، « فإن المعانى يتناهبها المولّدون كما يتناهبها المتقدمون »(٤) .

وهذه ـ كما نرى ـ مواقف تنبئ عن فكر مرن يؤمن بالتطوّر ويقبل بالجديد .

---

(١) الخصائص ٣/ ٢٤١ .

(٢) الخصائص ٢/ ٣٣٤ .

(٣) الخصائص ١/ ٣٤٠ .

(٤) الخصائص ١/ ٢٤ .

اللغة فى تصوّر ابن جنّىَ ظاهرة اجتماعية ، وهى تقبل الخضوع فى تغيّرها لما تخضع له عناصر الطبيعة ، واقرأ له – إن شئت – فى تأكيد هاتين الصفتين للغة (باب فى مشابهة معانى الإعراب معانى الشعر)(١) . ثم (باب فى بقاء الحكم مع زوال العلة)(٢) . ثم اقرأ له أيضًا فى (المحتسب ...) وقفاته العديدة وتخريجاته العبقريّة للكثير من وجوه القراءات الشاذة وحملها على غايات بلاغيّة يدخل إليها من مداخل لا يفطن لها إلاّ من كانت له عبقرية ابن جنى وخبراته ، مما جعله لا يتوقف عند حدود المستوى المعيارى للغة ، وإنما نراه يقتحم اللغة فى مستواها الفنّى كاشفا عن الكثير من الخصوصيّات والإمكانات التعبيريّة التى تنطوى عليها أساليبها ، وفى هذا السياق نراه يدلى بدلوه على نحو مفصّل فى عدد من القضايا المحوريّة التى تشتمل عليها نظرية اللغة الفنيّة . مما يمكن معه القول إننا بإزاء عالم محيط باللغة فى كلا مستوييها : المعيارى والفنىّ ، وهو لا يعدم نصيبه من الريادة فى كلا المجالين ، وعلى سبيل المثال يصافنا لديه رفضه لأشهر فكرة بنى عليها التصور المعيارى للغة وهى فكرة (العامل) وذلك قبل ابن مضاء القرطبى ت٥٩٢هـ بقرنين من الزمان . إذْ يصرّح ابن جنى بأن «العمل من الرّفع والنصب والجرّ والجزم إنما هو للمتكلّم نفسه لا لشئ غيره»(٣) .

أما على مستوى اللغة الأدبيّة وخصائصها فيلفتنا مناقشته لعدد من مظاهر التحويل فى العبارة على مستوى التراكيب والصيغ والدلالة(٤) ، ووقوفه عند صور عديدة من الانحرافات عن الصورة المثالية للعبارة(٥) .

---

(١) الخصائص ١٦٨/٢ وما بعدها .

(٢) الخصائص ١٥٧/٣ وما بعدها .

(٣) الخصائص ١١٠/١ .

(٤) الخصائص ٣١٧/١ ، ٤٦/٣ ، ٤٧ ، ٢٦٨ .

(٥) الخصائص ٢٩٧/١ ، ٢٩٨ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

كما يتحدث عن الضرورة وقيام الشاعر بارتكابها لا للاضطرار إليها وإنما وفاءً بحاجاته التعبيرية الخاصّة(١)، كما يناقش عددا من صور المجاز(٢) وخروج الأساليب عن معانيها التقليدية أو الوضعيّة إلى معان أخرى(٣)، وحديثه عن قوة اللفظ لقوة المعنى(٤) وحديثه عن تجاذب المعانى والإعراب (٥)، وحديثه المشهور عن (شجاعة العربية) والمظاهر المختلفة التى تتجلى فيها هذه الشجاعة،(٦)، كما يتحدث عن الالتفات (٧)، وعن الاعتراض(٨)، وعن الإمكانات التى تقدمها خاصة الإعراب فى اللغة العربية لحرية حركة المفردات داخل الجملة(٩).

وجدير بالذكر فى هذا السياق أن كثيراً من المداخل البلاغية فى (الخصائص) تتخفّى تحت عناوين خادعة تستر حقيقتها، وعلى سبيل المثال: يجيء الحديث عن قلب التشبيه مرة ضمن (باب من غلبة الفروع على الأصول)(١٠)، ومرة تحت (باب فى مشابهة معانى الإعراب معانى الشعر)(١١)، كما يجيء الحديث عن عرض التشبيه الواحد فى صوَر مختلفة تحت (باب فى إصلاح اللفظ)(١٢)، أما بابه الذى عقده

---

(١) الخصائص ١/٣٢٣، ٣٢٧، ٢/٣٩٢، ٣٩٣، ٣/٦٠، ٦١، ٣٩٢، ٣٩٣.

(٢) الخصائص ٢/٤٤٢، ٤٤٧، ٤٤٨، ٣/١٧٣.

(٣) الخصائص ٢/٤٦٢ ـ ٤٦٤، ٣/٢٦٩.

(٤) الخصائص ٣/٢٦٤.

(٥) الخصائص ٣/٢٥٥ ـ ٢٦٠.

(٦) الخصائص ٢/٤١١ ـ ٤٤٦.

(٧) الخصائص ٢/٢٣١، المحتسب ١/١٤٥

(٨) الخصائص ١/٣٣٥.

(٩) الخصائص ١/٣٥.

(١٠) الخصائص ١/٣٠٠.

(١١) الخصائص ١/١٧٥.

(١٢) الخصائص ١/٣١٢.

(فى التطوّع بما لا يلزم)(١)، فلست أشك فى أنه كان السبيل إلى (لزوم ما لا يلزم) أو (اللزوميّات) عند أبى العلاء .

كل ذلك يغرينا ونحن نقدم (الخصائص) بأن نتحدث عنه من الزاوية البعيدة ، أعنى زاوية فكره البلاغى ، أو نظره الفنى إلى اللغة .

* * *

فى هذا الجزء الأول من (الخصائص) يضرب ابن جنى بلاغياً فى أحد الدروب الرئيسيّة الوعرة التى انطلقت فيها النظرية الأدبية عند العرب ، وهو الدرب الخاص بقضية اللفظ والمعنى ودورُ كلٍّ من العنصرين وقيمته فى تكوين النصّ الأدبى ، وذلك فى الباب الذى عقده بعنوان **(باب فى الردّ من ادّعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعانى)** ، وكما نرى .. يحمل العنوان دليل الاشتباك مع رأى ــ أو آراء ــ سابقة فى الموضوع ، إذْ إنّ هناك دعوى بإغفال العرب العناية بالمعنى وميلها إلى العناية باللفظ وبشىء قليل من التأمل تشدّنا الذاكرة إلى ذلك التصريح الشهير للجاحظ الذى قرّر فيه أن « المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمىّ والعربى والبدوى والقروى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخيّر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة السّبْك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير »(٢) .

ومع يقيننا بأن الجاحظ لم يقصد قطّ إلى الحطّ من قيمة المعانى .. فإن المناسبة التى صدر فيها هذا التصريح ، وهى التعقيب على تفضيل أبى عمرو الشيبانى الكوفى لبيتين من الشعر بمعناهما .. هذه المناسبة قد خلعت دلالتها على كلام الجاحظ لدى مستقبليه من الدارسين المحدثين بصفة خاصة(٣) . إذْ حمله كثير منهم على أنه فى

---

(١) الخصائص ٢/٢٣٤ وما بعدها .

(٢) الحيوان ٣/١٣١ ، ١٣٢ .

(٣) ينظر مشكلة السرقات فى النقد العربى المرحوم الدكتور محمد مصطفى هدارة ص٢٢٢ ، والبلاغة : تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص٥٢ .

تفضيل اللفظ وضرورة العناية به دون المعنى ، وذلك بما أنه جاء رداً على من فضّل الكلام بالمعنى . وإذا كان من الواضح لنا أن كلام الجاحظ كان مفهوماً من جانب القدماء مثل قدامة والآمدى والقاضى الجرجانى وأبى هلال وعبد القاهر ، الذين جاروه فى الاعتقاد بأن القيمة الفنيّة إنما تكمن فى الصياغة ـ التى طلقوا عليها كلمة (اللفظ) ـ دون أن يعنى ذلك أى غضّ من المعنى ، مع ذلك يبدو أنه كان هناك من حمل تصريح الجاحظ ومن تابعه على موقفه ، على محمل الميل إلى اللفظ والدعوة إلى العناية به على حساب المعنى ، والدليل على ذلك هو صياغة عنوان الباب عند ابن جنى والقول بوجود من ادّعىٰ على العرب العناية باللفظ دون المعنى.

الجديد والمفيد معًا فى كلام ابن جنى ـ كما سنرى ـ هو إزالة التناقض تماما بين العنصرين ـ اللفظ والمعنى ـ يقول ابن جنّى : إن «العربَ كما تُعنى بألفاظها فتصلحها وتهذّبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشّعر تارة والخطب أخرى ، وبالأسجاع التى تلتزمها وتتكلف استمرارها، فإن المعانى أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدراً فى نفوسها. فأوّل ذلك عنايتها بألفاظها ، فإنها لما كانت عنوان معانيها وطريقا إلى إظهار أغراضها ومراميها .. أصلحوها ورتّبوها وبالغوا فى تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها فى السمع وأذهب بها فى الدلالة على القصْد ، ألا ترى أن المثَل إذا كان مسجوعًا لذّ لسامعه فحفظه ، فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله ... وكذلك الشعر : النفْسُ له أحفَظ وإليه أسرع »(١).

وليس من شك فى أن هذا التصوّر قد قدّم الحلّ الأمثل لهذه المشكلة

---

(١) الخصائص ١/٢١٥ ، ٢١٦ .

ـ فى حالة تصوّر وجودها طبعاً ـ وذلك بإزالة التنافى ـ أو التضادّ ـ بين العناية باللفظ وتقدير قيمة المعنى ، أو بين تقدير قيمة المعنى وضرورة العناية باللفظ ، وهذا من شأنه أن يلغى الأثر المترتب على صيغة التفضيل للمعنى فى حديث ابن جنى (أقوى ، أكرم ، أفخم) إذْ لا مكان للمفاضلة إلاّ عند الاضطرار إلى الاختيار أو التفضيل ، وهو ـ طبقا لتوجّه حديث ابن جنى ـ غير مطلوب ، لأننا بصدد طرفين يعضد كلّ منهما الآخر ، فأهمّية المعنى تقتضى أن يعتنى باللفظ ، والعناية باللفظ هى مقتضى أهمية المعنى »(١).

والواقع أن دور ابن جنى الرائع فى حلّ هذه المعضلة لا يقتصر على هذا القدر النظرى من الحديث فى الموضوع ، وإنما تعداه إلى مسلك عملى قاده إلى مواجهة مع أصحاب القول بأنّ من الشعر ما قد يكون حسن اللفظ دون أن يكون تحته كبير فائدة فى المعنى ، وفى مقدمة هؤلاء ابن قتيبة فى مقدمة (الشعر والشعراء) فى سياق تقسيمه الشهير للشعر إلى أربعة أضرب هى : « ما حسن لفظه وجاد معناه »(٢) .. وما حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتّشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى »(٣) . وما جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ...»(٤) ، وما تأخر معناه وتأخّر لفظه »(٥) .

لقد مثّل ابن قتيبة للضرب الثانى ـ الذى حسن لفظه وحلا دون أن يكون تحته فائدة فى المعنى بأبيات اختلف فى نسبتها بين كثيّر وآخرين وهى :

---

(١) يراجع : ظاهرة الخلط فى التراث البلاغى والنقدى بين المعنى الأدبى والمعنى الاجتماعى ص١٣٥ ، ١٣٦ ، مكتبة الآداب .

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٧٠ .

(٣) الشعر والشعراء ١/٧٢ .

(٤) الشعر والشعراء ١/ ٧٤ .

(٥) الشعر والشعراء ١/٧٥ .

ولمّا قضينْا من منًى كـل حاجــة ومسّح بالأركان مــن هــو ماســحُ
وشُدّت على حدب المهارى رحالنا ولا ينظر الغــادى الذى هــو رائح
أخذنا بأطـراف الأحاديــث بيننــا وسالت بأعنــاق المطــيّ الأباطــح

ثم عقبِ عليها بقوله « هذه الألفاظ ـ كما ترى ـ أحسنُ شىء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث وسارت المطىُّ فى الأبطح »(١)، وتشير نغمة كلام ابن قتيبة إلى تواضع قيمة الأبيات عنده ، وأنها لا تخرج عن الضرب الذى سلكها فيه وهو الأشعار الحسنة اللفظ القليلة الفائدة فى المعنى .

وقد تابع ابنَ قتيبة على هذا الرأى فى الأبيات نفسها كلٌّ من ابن طباطبا ت٣٢٢هـ وقدامة بن جعفر ت٣٣٧هـ وأبى هلال العسكرى ت٣٩٥هـ والباقلانى ت٤٠٣هـ .

أما ابن طباطبا فصنّف الأبيات ضمن (الشعر الحسن اللفظ الواهى المعنى)(٢)، وأما قدامة فجعلها ضمن ما كان من الأشعار « سمحًا سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة ... وإن خلَتْ من سائر النعوت للشعر » (٣).

وأما أبو هلال فجعلها ضمن ما « كان لفظه حلوا عذباً وسلساً سهلا ومعناه وسطا »(٤)، وفعل الباقلانى نفس الشىء ، إذ جعلها « من الشعر

---

(١) الشعر والشعراء ١/٧٢ ، ٧٣ .
(٢) عيار الشعر ٨٣ .
(٣) نقد الشعر ٢٨ .
(٤) الصناعتين ٦٥ .

الحسن الذى يحلو لفظه وتقلّ فوائده »(١).

الموقع الزمنى لمجموعة النقاد الذين سبق ذكرهم يتراوح بين التقدّم على زمن ابن جنى (ابن طباطبا وقدامة) وبين معاصرته (أبو هلال والباقلانى) وهذا يعنى أمرين : أحدهما أنهم خارج نطاق التأثّر من قبل ابن جنى ، والآخر : أنهم فى مرمى تأثير ابن قتيبة ، وهذا أمر حقيقى تؤيده نصوص تصريحاتهم التى تعزّز من زاوية أخرى ـ أنّ ابن جنى ـ بموقفه المتميزّ فى المسألة ـ هو الذى أفلت من تأثير ابن قتيبة متخذاً من مجموعة الأبيات الحائية التى وقف عندها النقاد الخمسة ـ ابن قتيبة وابن طباطبا وقدامة والعسكرى والباقلانى ـ واصفين إياها بحلاوة اللفظ وتواضع المعنى ـ أقول اتخذ منها ابن جنى دليله على رأيه الذى سبق إليه فى القول بأنّ تميزّ اللفظ هو السبيل إلى تمّيز المعنى وهو الدليل عليه.

لقد جاء حديثه عن اثنين من الأبيات الثلاثة التى وقفوا عندها متّخذاً طابع الردّ العامد على رأى مضاد موجودٍ سلفًا ومعروف : « فإن قلتَ : فإنّا نجد من ألفاظهم ما قد نمّقوه وزخرفوه ووشّوْه ودبّجوه ، ولسنا نجد ـ مع ذلك ـ تحته معنًى شريفا ، بل لا نجده قصداً ولا مقارباً ، ألا ترى إلى قوله :

ولما قضينا من منى كلّ حاجةٍ ومسّح بالأركان من هو ماسحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

فقد ترى إلى علوّ هذا اللفظ ومائه وصقَاله وتلامح أنحائه ، ومعناه مع هذا ما تحسّه وتراه ... ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ رفيعتها مشروفة المعانى خفيضتها »(٢).

---

(١) إعجاز القرآن ٢٢١ .

(٢) الخصائص ١/٢١٨ .

وهنا يجيء ردّ ابن جنى : « هذا الموضِع قد سبق إلى التعلّق به مَنْ لم ينعم النظر فيه ، ولا رأى ما أراه القوم منه ، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر وخفاء غرض الناطق . وذلك أن فى قوله (كلّ حاجة) ما يفيد منه أهل النسيب والرّقة وذوو الأهواء والمقة ما لا يفيده غيرهم ولا يشاركهم فيه مَنْ ليس منهم ... وكأنه صانَعَ من هذا الموضع الذى أومأ إليه وعقد غرضه عليه بقوله فى آخر البيت :

* ومسَّحَ بالأركان مَنْ هو ماسح *

..... وأما البيت الثانى فإن فيه :

* أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا *

وفى هذا ما أذكره لتراه فتعجبَ ممّن عجب منه ووَضَعَ مِن معناه . وذلك أنه لو قال : أخذنا فى حديثنا ونحو ذلك لكان فيه معنى يُكبِره أهلُ النسيب ... فكيف به إذْ قيّده بقوله (بأطراف الأحاديث) ... **ألا ترى أنه يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبّون ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيّمون من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح** ، وذلك أحلى وأدْمث وأغزل وأنسب ...

وإذا كان كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم وأشدّ تقدمًا فى نفوسهم من لفظهما وإن عذب موقعه ، وأنِق له مستمعه »(١) .

هكذا يجيء الخلاف بين ابن جنّى ومجموعة النقاد المشار إليهم على مستويين : عامٌ يتعلق بموقف العرب عمومًا من عنصرى اللفظ والمعنى ، حيث يرى ابن جنى أنهم لم يغفلوا شأن المعانى ، وإنما وفّوها حقّها وأولوْها عنايتهم ، متوسّلين إلى ذلك بالعناية باللفظ والتأنق فيه .

---

(١) الخصائص ١/٢١٨ ـ ٢٢٠ .

«فإذا رأيتَ العربَ قد أصلحوا ألفاظها وحسّنوها ، وحَمَوْا حواشيها وهذّبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا ترينّ أن العناية إذْ ذاك إنما هى بالألفاظ ، بل هى عندنا خدمةٌ منهم للمعانى وتنويه بها وتشريف منها »(١) .

أما المستوى الخاص فيتعلق بالأبيات الحائية التى وقفوا عليها وأجمعوا على أنها ـ بعبارة ابن جنى ـ شريفة اللفظ مشروفة المعنى ، إذ رأى هو أن معناها لا يقل قيمة عن لفظها إن لم يتقدّم عليه .

هذا الموقف من جانب ابن جنى ونصوصه التى حملته إلينا لا يقل أهميةً عن نصّ الجاحظ الشهير الذى حمل تصريحه بأن « المعانى مطروحة فى الطريق ...»(٢) ، بل هو فى تقديرى ـ وبعيداً عن الحماسة المفضية إلى المبالغة ـ أهم من نصّ الجاحظ ، لأنه من ناحية لم يستوف حقه من التأمل والعناية ، ولأنه من ناحية أخرى يحمل التوجيه السديد لمراد نصّ الجاحظ ، ويعمل من ناحية ثالثة على تلافى بعض ما خلّفه ظاهر كلام الجاحظ من آثار لم تكن فى حسبانه ، ولأنه أخيراً يمثّل اختيارِ عبد القاهر فى محاولته لدحض شبهة القائلين بأن للفظ مزايا خاصّة ينفرد بها وتطلق عليه بعيداً عن المعنى .

وليس من شك فى أن تلك الشبهة ـ شبهة اكتساب اللفظ قيمة ذاتيةً خاصة به بعيداً عن المعنى ـ قد لحقت ـ فى رأى عبد القاهر ـ بذلك الفريق من النقاد الذين تابعوا ابن قتيبة على رأيه فى مجموعة الأبيات الحائية التى وقف عندها ، واصفا إياها بجودة اللفظ وتواضع المعنى .

من هنا كان وقوف عبد القاهرِ عند نفسِ الأبيات مدافعا عن معناها منتهجا نفس السبيل التى سلكها ابنُ جنى معرِّجا على جوهر الأفكار التى

---

(١) الخصائص ١/٢١٧ .

(٢) الحيوان ٣/١٣١ ، ١٣٢ .

وقف عندها ، مما يقطع لدينا ـ إلى جانب شواهد أخرى ـ بأن صاحب (الأسرار) و (الدلائل) قد وقف على كلام صاحب (الخصائص) فى هذه القضية واستمدّ منه ، وهذه ـ فى رأينا ـ نتيجة لا تقبل النقاش .

يقول عبد القاهر : « وإذا وجدتَ ذلك أمراً بيّناً لا يعارضك فيه شك ... فانظر إلى الأشعار التى أثنوا عليها من جهة الألفاظ ووصفوها بالسلاسة ونسبوها إلى الدماثة ... كقوله :

ولما قضينا من منى كلّ حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشُدّتْ على دُهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

ثم راجع فكرتك واشحذ بصيرتك ... ثم انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم ... منصرفاً إلاّ إلى استعارة وقعت موقعها وأصابت غرضها ، أو حسن ترتيبٍ تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع ... وذلك أن أول ما يلقاك من محاسن هذا الشّعر أنه قال

ولما قضينا من منى كلّ حاجة

فعبّر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فروضها وسننها من طريق أمكنه أن يقصّر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم ، ثم نبّه بقوله :

ومسّح بالأركان من هو ماسح

على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر ، ثم قال :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

فوصل بذكر مسح الأركان ما وليه من زمّ الركاب وركوب الركبان ، **ثم دلّ بلفظة (الأطراف) على الصفة التى يختصّ بها الرفاق**

فى السفر من التصرّف فى فنون القول وشجون الحديث أو ما هو عادة المتظرفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء .

وليس من هدفنا كثرة النقل عن عبد القاهر .. حسبنا ما يلزم لتأكيد أخذه عن ابن جنى ، ويكفى فى هذا الصدد أن نسجّل متابعته له فى الوقوف على مجموعة الأبيات الحائية المذكورة ـ وهى الأبيات التى وقف عندها مجموعة النقاد الذين تعرضوا للقضية ـ ثم نتبع ذلك بالنظر فى بعض عباراته ومضاهاتها بعبارات ابن جنى .

أما عبارة ابن جنى فهى :

« ألا ترى أنه يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبّون ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيّمون من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح » .

وأما عبارة عبد القاهر فهى :

« ثم إنه دلّ بلفظة الأطراف على الصفة التى يختصّ بها الرفاق فى السفر من التصرّف فى فنون القول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتظرّفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء » .

ولا أظن أننا بحاجة إلى تأكيد الصلة بين العبارتين ، وما تستتبعه هذه الصلة من تأثّر لاحق هو عبد القاهر ت٤٧١هـ بسابق هو ابن جنى ت٣٩٢هـ .. فى هذه القضية المحوريّة من قضايا النظرية الأدبية العربية ـ قضية اللفظ والمعنى ـ وهى القضية التى ظفرنا فيها بذلك الموقف الرائد الذى وقفه ابن جنى من خلال هذا الجزء الأول من الخصائص الذى تقدمه لك ـ عزيزى القارئ ـ سلسلتك الحبيبة (الذخائر) على أمل اللقاء مع جوانب أخرى من الفكر البلاغى لابن جنى مع الجزء الثانى من (الخصائص) بإذن الله .

عبد الحكيم راضى

أول مايو ٢٠٠٦م

الذخائر
١٤٧

الخصائص

صنعة
أبي الفتح عثمان بن جنى

بتحقيق
محمد على النجار

قدم هذه الطبعة
د. عبد الحكيم راضي

الجزء الثاني

الهيئة العامة لقصور الثقافة

طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية

سلسلة
الذخائر

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد نوار
أمين عام النشر
د. أحمد مجاهد
الإشراف العام
محمد أبو المجد

الذخائر
١٤٧

تعنى بنشر نفائس التراث العربى بالمستوى الذى يحقق رغبة القارئ المعاصر من حيث التحقيق العلمى وحيوية المضمون المعرفى.

• الخصائص (الجزء الثانى)
• تأليف: أبى الفتح عثمان بن جنى
• تحقيق: محمد على النجار
• هذه الطبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - ٢٠٠٦م
(نسخة مصورة عن طبعة (ج٢)
دار الكتب المصرية ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م)
٥٥٢ ص. ٥ر٢٣ × ٥ر١٦سم
• تصميم الغلاف: محمد بغدادى
• رقم الإيداع: ٨٨٥١ / ٢٠٠٦
• الترقيم الدولى: 977-305-894-8
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: ١٦ أ شارع
أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١
ت: ٧٩٤٧٨٩١ (داخلى: ١٨٠)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: ٣٩٠٤٠٩٦

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
أ. د عبد الحكيم راضى
مدير التحرير
جمال العسكرى

مستشارو التحرير

أ.د. السباعى محمد السباعى   أ.د. عبد الله التطاوى
أ.د. حسنين محمد ربيع   أ.د. عبده على الراجحى
أ.د. حسين نصار   أ.د. محمد حمدى إبراهيم
أ.د. محمد عونى عبد الرؤوف

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة أو بالإشارة إلى المصدر.

www.calturepalaces.com.eg

الخَصَائِصُ

الجُزءُ الثَّانِي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـم

الفكر البلاغي في كتاب الخصائص

- ٢ -

عزيزى القارئ ، لا أدرى لماذا تُلح على ذاكرتى تلك العبارةُ التى حملتْ رأىَ واحدٍ من النقاد المتقدمين فى أشعار القدماء ، وكان معجبًا بها ، لقد قال : إنّ أشعارهم « كالمسْك .. كلما حركْتَه ازْداد طيبًا » ، وتسألنى : ما المناسبة ؟ أو : ما سبب تداعى هذه العبارة إلى ذاكرتى ؟ وأقول لك : إنه ابنُ جنّى وكتابه الخصائص .. نعم .. بل ليس الخصائص وحده .. إنها كتب ابن جنى كلها ، وإن كان أقربها إلى اهتمامى (خصائصه) و(مُحتَسبُه) و شروحه للشعر .. خصائصه بالذات أكثر استحقاقا لهذا التشبيه ، إنه كالمسك ، كلما حركته ازداد طيبا ، أعنى أنك كلما أعدْتَ قراءته اكتشفتَ فيه جديداً ، أو كشَفَ لك هو عن جديد ، ولا أذكر عدد مرات قراءتى للخصائص ، ولكنني أذكر جيداً أنه ما من مرة قرأتُ فيها الكتاب أو جزءً منه إلا رأيت هذا الجديد اللافت والمميّز أحيانا .. وأكثر ما يدعو إلى العجب عند هذا الرجل هو كيفيّة استمداده لأفكاره ، ثم كيفيّة تقديمه لها والبرهنة عليها وكشف ملتبسها ، ثم إحاطته بما يتحدث عنه ولمْح أدلّته وشواهده فى كلّ ما يقع تحت حسّه ، وما يدور فى عقله من أفكار وما تحوى ذاكرته من حديث وأشعار .. الشرق والغرب والشمال والجنوب والسماء والأرض والبعيد والقريب والجماد والحىّ والمجرّد والمحسوس . كلها تلتقى فى (بوتقة فكره) فيخرج لك منها ما يكسر توقعك ويفجأ معتاد فكرك ومألوف تجربتك ....

وتسألنى - عزيزى القارئ - لم إعادةُ الحديث بالثناء على ابن جنى والتنويه بعبقريته ؟ وأجيبُك : ألم أقلْ لك إنّ أفكاره كالمسك .. كلما

حركته ازداد طيبا ؟ وإننى كلما أعدتُ قراءته ازددتُ انبهاراً به ؟

معذرةً - إذن - إذا أنا عُدت إلى حديثه فى اللفظ والمعنى ، وهو الموضوع المحورى فى الجزء الأول ، وذلك قبل أن نحلّق معًا إلى آفاق موضوع آخر ، أو تجربةٍ أخرى أظنها فريدة ، خاضها ابنُ جنى فى هذا الجزء الثانى من الخصائص الذي نقدمه لك هنا ، وهى التجربة التى واتتنى فى تسميتها شجاعة ابن جنى ، فوجدتنى أطلق عليها اسم : صورة خاصة من التناص . فلنتذكر إذن أن هذا الجزء من التقديم يحوى قطعتين ، الأولي: تتمّة لما سبق مع الجزء الأول ، والثانية هى حديث التناصّ الذى هو الموضوع المحورىّ فى الجزء الثانى .

لعلك تذكر - عزيزى القارئ .. أن التقديم الذى صُدِّرَ به الجزء الأول من كتاب الخصائص قد اضطلع بأمرين ، أو - إذا شئنا الدقة : اضطلع بأمر وانتهى تبعًا له وبحكم سياق الحديث إلى نتيجة لم يكن فى الإمكان العدول عنها - أو حتى مجرد التغافل .

أما الأمرُ الذى اضطلع به ذلك الجزء من التقديم فهو دور ابن جنى فى تحرير موقف البلاغيين والنقّاد العرب من عنصرى اللفظ والمعنى ، هذا الموقف الذى كان واضحا فى أذهان الكثيرين من القدماء وهو أن مزيّة الكلام وأدبيّة الأدب إنما هى فى طريقة صياغته ، أو - باصطلاح القدماء - فى (لفظه) ، وإن شابَ عبارتَهم عنه شيءٌ من اللّبس أحيانا ، جعل آراءَ بعضهم عُرضَةً للأخذ والردّ ، أو على الأقل عرضةً للتساؤل .

وكان من أبرز أولئك القدماء الذين أسيء فهم كلامهم فى القضية أبو عثمان عمرو بن بحر المشهور بـ (الجاحظ) ت ٢٥٥ هـ، وذلك بسبب تصريحه الذائع الذى قال فيه : إنّ « المعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها العجمىّ والعربى والبدوي والقروى ... وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخيّر اللفظ ...

وجودة السبك »[١] هذا التصريح الذى فهمه كثير من اللاحقين على الجاحظ - كأبى هلال مثلا - فهما صحيحًا غالبا فلم يحملوه على معنى الحطّ من شأن المعنى ، يبدو أنه قد خلّف بعض الآثار الجانبيّة التى تمثّلتْ فى تصورّ البعض أن العربَ تُعلى من شأن اللفظ وتحطّ من قدر المعنى .. ومن هنا جاءت أهمية الباب الذى عقده ابنُ جنّى فى الجزء الأول من الخصائص (فى الردّ على من ادّعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعانى). لقد كان علىّ وأنا أقدّم ذلك الجزء ملتزما بالحديث عن (الفكر البلاغىّ فى كتاب الخصائص) أن أتعرّض لأبرز المسائل البلاغيّة التى تصدّى لها صاحب الكتاب ، وكان واضحًا أن حديثه اللافت والحاسم فى قضية اللفظ والمعنى ، وما قدّمه من حلٍّ أراه موفّقا وفريداً للمشكلة - أو ما حوّله تعدّدُ الآراء وتضاربها إلى مشكلة - وذلك حين قال إن العرب تُولى عنايتها للمعانى وتبالغ فى الاهتمام بها ، وإن السبيل إلى ذلك والدليلَ عليه هو عنايتُها بألفاظها التى هى أوعيةُ معانيها ، وأن العناية بالوعاء هى دليل العناية بالموعَى .

أقول : كان واضحا أن موقف ابن جنى من عنصرى اللفظ والمعنى هو المحور الرئيسى الذى يفرض نفسه ، ويفرض التصدى له حالَ تقديم الجزء الأول من الخصائص ، وذلك ما جرت محاولته قدر المستطاع وقتها ، حيث انتهيتُ إلى أن ابن جنى قد اضطلع بدور تاريخى حقًا فى تحرير معنى عبارة الجاحظ ، وقطع ما لحق بها من شبهة التحيز للفظ ، بل وقطع ما لحق بموقف الجاحظ نفسه - وآخرين بعده - من وصف بالتحيز لهذا العنصر أو ذلك ، أو التناقض فى الموقف منهما .

هذا الكلامُ النظرىُّ المقنع الذى ساقه صاحب الخصائص كان لا بد أن يدعمه موقفٌ تطبيقى ، وقد حدث ذلك حين رفض ابنُ جنى ما زعمه ابنُ قتيبة من وصف مقطوعة شعرية من ثلاثة أبيات بأنها مما حسُن لفظُه وخلا دون أن يشتمل على كبير فائدة فى المعنى[٢]. لقد رفض ابن جنى رأى ابن

---

[١] الحيوان ٣/١٣١ ، ١٣٢ .

[٢] انظر : الشعر والشعراء ١/٧٢ ، ص١٠ من تقديمنا للجزء الأول من الخصائص .

قتيبة ومعه آراء أربعة آخرين من النقاد تابعوه على رأيه هم : ابن طباطبا وقدامة بن جعفر وأبو هلال العسكرى والقاضى الباقلانى ، وأكّد أن المعنى فى هذه الأبيات لا يقلّ قيمةً عن جمال اللفظ فيها ..

وهنا جاءت النتيجة التى تكاد تصل إلى حدّ المفاجأة ، أعنى ما لمحناه يقينًا من متابعة عبد القاهر لابن جنّى فى رأيه فى قيمة المعنى فى الأبيات المشار إليها ، وهى المتابعة التى استدعتْ بدورها التنبُّهَ إلى تأثّر عبد القاهر فى موقفه من عنصرى اللفظ والمعنى عموما برأى ابن جنى فى بابه المشار إليه ... خاصّة حين يكرّر أن البلاغيين كثيراً ما يتكلمون عن ميزات فى اللفظ لا يمكن فهمها إلا إذا كان المقصود بها المعنى (١).

* * *

وقد كان يمكن لهذه النتيجة ـ أعنى تأثر عبد القاهر الواضح بابن جنى ـ أن تمرّ فى هدوء وعلى نحو عادى ، لولا ملابساتٌ معينة أبرزُها انتماء ابن جني إلي فرقة المعتزلة ، ثم تبنّيه القولَ بأن المعنى هو المحرك الأساسي إلى إجادة اللفظ ، ذلك أن الأستاذ محمود شاكر ـ رحمه الله ـ قد أشبع القول ـ وهو يقدم تحقيقه لدلائل الإعجاز ـ فى أن عبد القاهر كان كلُّ همه فى هذا الكتاب أن يردّ شبهة المعتزلة ـ خاصة القاضى عبد الجبار صاحب (المغنى) ـ وأن يكشف عن فساد أقوالهم فى مسألة اللفظ ، إذْ إنّ منهم ـ حسب قول الأستاذ شاكر وفهمه لكلام عبد القاهر ـ مَنْ ذهب إلى تعظيم اللفظ، وإلى أنّ من مزايا الكلام ما يعود إلى اللفظ فى ذاته من حيث هو صوت ونطق لسان (٢).

ومع تقديرنا لرأى الرائد العظيم فإننا نختلف معه أشدّ الاختلاف فى تصويره لموقف عبد القاهر من المعتزلة عموما ومن القاضى عبد الجبار

---

(١) الدلائل ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) مقدمة الأستاذ شاكر لتحقيقه للدلائل ص أ ، ب ، جـ .

خاصة ، وكذلك فى كيفية تقبّل عبد القاهر للعبارات التى حدّدها الأستاذ شاكر من كتاب المغنى وصوّر منها مواضع لانتقاد عبد القاهر وردّه على القاضى عبد الجبار . والثابت أن عبد القاهر قد تأثّر على نحو واضح بعدد كبير من المعتزلة أو من حامت حولهم هذه الصفة ، وعلى رأسهم : الجاحظ ت٢٥٥هـ، وأبو على الفارسى ت٣٧٧هـ ، والقاضى الجرجانى ت٣٩٢هـ ، وابن جنى ت٣٩٢هـ ، والقاضى عبد الجبّار ت٤١٥هـ : وهو تأثر تلمذة وأخذ لا مناقضة وردّ ، ويمكن لمن يتتبع مؤلفات عبد القاهر أن يرصد أثر كلٍّ من هؤلاء الأعلام الذين وردت أسماؤهم فى مؤلفاته ، وإن كانت نسبةُ ورود الأسماء لا تعكس المقدار الحقيقى لتأثّره بكل منهم ، من هنا تسقط - منطقيا - دعوى مناقضة عبد القاهر للمعتزلة وتتبعهم بالهجوم ، كما تسقط - عمليا - دعوى مخالفته لهم ، سواء من واقع موافقته فى الدلائل لكل ما قاله صاحب المغنى ، أو واقع ما رأيناه من تأثره الكامل فى قضية اللفظ والمعنى بصاحب الخصائص .

* * *

تتأكّد أصالة ابن جنى فى بحثه لمسألة اللفظ والمعنى من أنه لم يقتصر على طرح رأيه فيها من المنظور الأدبى - الذى قد يكتنفه الانطباع - وإنما نراه بعد أن يردّ على ابن قتيبة فى تهوينه من المعنى فى مجموعة الأبيات الحائيّة المشهورة ، وبعد أن يعيد إلى المعنى فى تلك الأبيات اعتبارَه .. نراه يتناول المسألة من المنظور اللغوى الصميم : صوتا وتصريفًا ودلالة وتركيبا فى عدد من الأبواب موزّعة على أجزاء الكتاب ، ويكفى فى هذا السياق أن نشير إلى صنيعه فى الباب الذى نحن بصدده ، أعنى الباب الخاصّ بالردّ على من زعم عناية العرب بالألفاظ وإغفالها المعانى ، إذ يناقش قضية لها بعدها الصّرْفى الدلالى ، وهى قضية (الإلحاق) - إلحاق مصادر بعض الأفعال بمصادر بعضها وعدم إلحاق البعض - (والإلحاق يعنى

تماثل صيغ المصادر تبعا لتماثل صيغ الأفعال ، وعدم الإلحاق يعنى اختلاف صيغ المصادر رغم تماثل صيغ الأفعال) - وعلى سبيل المثال : الفعل شَمْلَلَ وبَيْطَرَ ملحقان بباب دَحْرَجَ ، فنحن نقول : شَمْلَلْتُ وبَيْطَرْتُ شَمْلَلَةً وبَيْطرةً كما نقول : دحرجْتُ دحْرَجَةً ، والسبب فى مجىء المصدرين الأولين على وزن المصدر الأخير - أى إلحاقهما به - هو عدم وجود سبب دلالى يُفضى إلى استقلال صيغة المصدر فيهما .. فإذا وُجد هذا السبب ، وهو الاستقلال الدلالى فى أفعال من نوع أكرم - وهو على وزن أفعل الذى يفيد النقل والبلوغ - وقاتل - وهو على وزن فاعَل ، الذى يفيد وقوع الفعل بين اثنين - وقطّع - وهو على وزن فعّل الذى يفيد التكثير - استقلّت مصادر هذه الأفعال ولم تُلحَقْ بمصادر الأفعال من بابها ، فقيل : أكرم إكرامًا وقاتل قتالا وقطّع تقطيعا .. يقول ابنُ جنّى « فتنكّبوا إلحاقها بها صَوْنًا للمعنى وذبًّا عنه أن يُستَهْلك ويَسقُطَ حكمُه » (١).

هذا الموقف من جوهريّة المعنى وجعل اللفظ هو مظهر التعبير عنه يتغيّر ويُعدَّل بحسب حاجة المعنى .. يتجلّى فى كثير من أبواب (الخصائص) ، وليس هنا مجالٌ لتفصيل القول فى هذا الموضوع ، حسبنا مجرد الإشارة إلى أبواب من مثل (باب فى قوة اللفظ لقوة المعنى) (٢). و (باب فى تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى)(٣). و (باب فى إمساس الألفاظ أشباه المعانى)(٤). ومدار هذه الأبواب غالبا على كيفية استجابة الصوت والصيغة الصرفية للمعنى كيفا وكمًّا ، لصالح المعنى بطبيعة الحال.

والحقيقة أن المواضع التى يتجلّى فيها مذهب ابن جنى فى أنّ إحسان التعبير عن المعنى والتأنّق فى اختيار اللفظ الحامل له ، إلى الحدّ الذى تتوحد فيه الوسيلة مع الغاية ، هو الدليل الأكيد على قيمة المعنى وعلو

---

(١) الخصائص ١/٢٢٣ .

(٢) الخصائص ٣/٢٦٤ .

(٣) الخصائص ٢/١٤٥ .

(٤) الخصائص ٢/١٥٢ .

منزلته .. هذه المواضع كثيرة ، وتشمل - كما رأينا - نظرات خاصةً فى الاشتقاق والتصريف ، كما تشمل نظرات فى الإعراب والتركيب[1] .

عزيزى القارئ .. لقد كان من الضرورى أن نُعيد التطوافَ بك حول قضية اللفظ والمعنى .. تذكيراً بقوة الدور الذى لعبه ابنُ جنى فى صوْغ المادة الخاصّة بها فى دستور النظرية الأدبيّة العربية ، وتأكيداً لمحوريّة هذا الدور وعمق تأثيره . وربما بدا الحديث عنده متحاملا - فى الظاهر - على اللفظ بإباحة التصرّف فيه والعدول به عن معتاد حاله صَرْفًا ودلالة وتركيبا ولكن ينبغى علينا أن نفهم كلّ هذه الإباحات والرخص فى سياقاتها ، إذْ يبدو أن ابن جنى كان يمتح من المعين القديم ، ذلك الذى قد يعود إلى الأصمعى ، هناك حيث التفرقةُ بين القاعدىِّ - أو المعيارىِّ - والجميل الرائع، وهو ما يمكن استنتاجه من وصف الأصمعى لشعر لبيد بأنه « كطيلسان طبَرى ، يعنى أنه جيد الصنعة وليست له حلاوة »[2] .

أقول : يبدو ذلك ، لأن ابن جنى يربط على طول الخط بين قوة الشاعر وقدرته على التصرّف فى اللفظ والتحكّم فيه ومخالفة المتوقّع فى توجيهه وتجاوز المسلمات المقرّرة في صرفه ودلالته وتركيبه وبين روعة الناتج وفنيّته التى تتعاظم بتعاظم الخروج على خلاف تلك المقررات ، مما أفضى به إلى صَكّ واحد من أثمن المصطلحات التى اشتملت عليها النظرية الأدبية العربية ، وهو مصطلح (شجاعة العربيّة) هذا المصطلح الذى ورد الحديث عنه فى الجزء الثانى من الخصائص الذى نقدمه لك عزيزى القارئ ، محاولين التنقيب عن هذا المصطلح : لفظه ، مفهومه ، الصورة التى مثّل بها ابنُ جنى لتوضيح هذا المفهوم ، آملين أن نكشف عن جانب من عظمة هذه العقلية الضخمة التى وجهت صاحبها إلى مصادر غير عاديّة يلتقط

---

(١) انظر (باب فى الفرق بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى) ١/٢٧٩ و (باب فى تجاذب المعانى والإعراب) ٣/٢٥٥ .

(٢) الموشح ١٠٠ ، وانظر الخصائص ٣/٢٨٢ فى حكايته عيب الأصمعى لشعر الحطيئة ، حين وجده كله جيدا فاستدل من ذلك على أنه كان يصنعه ولم يكن مطبوعًا .

منها أفكاره ، عبر طرق غير مألوفة عرف كيف يسلكها ويهتدى فيها ويهدى إليها غيره .

هذا مع تأكيدنا أنّ فى هذا الجزء الثانى ـ غير شجاعة العربيّة ـ كثيراً من المباحث والنظرات البلاغية المهمّة ، كحديثه فى المجاز والحقيقة(١) . وخروج بعض الأساليب ـ كالاستفهام ـ إلى معان أخرى خلاف الاستفهام(٢) . ورأيه الخاصّ فى التشبيه المحذوف الأداة(٣) وحديثه فى (التجريد)(٤) وغير هذه من المباحث التى تستحق دراسات مفصلة ، ولكنّا نكتفى بالحديث عن (شجاعة العربية) وفاءً بما رأيناه مناسبا من تقديم كلّ جزء من أجزاء الكتاب بأبرز موضوعاته الكاشفة عن فكر صاحبه البلاغى .

ولا يفوتنا القول إننا فى تعرضنا لمصطلح (شجاعة العربيّة) لن نستطرد إلى تعداد تفاصيل الأساليب والظواهر المندرجة فى إطار المفهوم وكلها من قبيل التجوّز أو الترخّص والخروج على القاعدىّ والمألوف من أساليب اللغة ، فهذا عمل يحتاج إلى حيّز كبير ووقت ليسا متاحيْن هنا .. حسبنا تناول هذا المصطلح الفريد واللافت ، من منظور تناصّىٍّ ، أى من زاوية الإجابة عن السؤال : من أين لابن جنى ذلك المصطلح : لفظه ، مفهومه ، ثم الصورة التى أوضح بها هذا المفهوم . وأذكرك ـ عزيزى القارئ ـ بما قلتُه من أنّ من جهات إعجابنا بابن جنى قدرتَه ـ أو موهبته ـ فى اقتناص الأفكار والمصطلحات من مجالات قد تبدو بعيدة من مجال اللغة والأدب ، كما أن منها قدرته أيضا على لمح الصلات بين الظواهر التى تنتمى إلى مجالات متباعدة ، وعقد الروابط بينها بمهارة وعلى نحو يستدعى التقدير والإعجاب .

---

(١) الخصائص ٢/٤٤٢ .

(٢) الخصائص ٢/٤٦٢ .

(٣) الخصائص ٢/٤٤٢ .

(٤) الخصائص ٢/٤٧٣ .

شجاعة العربية

صورة خاصّة من التناصّ

أطلق ابنُ جنى على المفهوم الذى نحن بصدده مصطلح (شجاعة العربيّة)، واختصّه بباب كبير فى كتاب (الخصائص)، وقال: « اعلم أنّ معظمَ ذلك إنما هو الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف » .

ويتعرّض ابنُ جنى لهذه الأساليب التى ذكرها ، ويعدّدُ مظاهرَها ، أو تفريعاتها . فالعرب «قد حذفت الجملةَ والمفردَ والحرفَ والحركة»[١].

وللتقديم والتأخير ضربان ؛ أحدهما : ما يقبله القياس ، والآخر : ما يسهّله الاضطرار[١]. والحمل على المعنى غورٌ من العربيّة بعيد ، ومذهب نازح فسيح ، قد وَرَدَ به القرآن وفصيح الكلام نثراً ونظمًا ، كتأنيث المذكّر وتذكير المؤنّث ، وتصوّر معنى الواحد فى الجماعة والجماعة فى الواحد[٢]...

أما التّحريف فقد وَقَعَ فى الاسم والفعل والحرف[٣].

والحديث كلّه عن ظواهرَ من مخالفة قواعد الصّواب فى التركيب والصرفْ والدلالة ، من قبيل ما يسلكُه المهتمون بهذه القواعد ضمن ظواهر المجاز والضرورة .

وقد كرّر ذكر المصطلح بلفظه ، وبنفس المفهوم تقريبا فى كتاب (المحتسب) ـ الذى ألّفه بعد الخصائص ـ حيث أعاد الإشارةَ إلي ظاهرة الحمل على المعنى ـ كتذكير المؤنث وتأنيث المذكر وإفراد الجمع وجمع المفرد ـ ثم قال : « وهذا فاشٍ عنهم ، وقد أفردنا له بابًا فى كتابنا فى الخصائص، ووسمناه هناك بـ (شجاعة العربيّة) »[٤].

---

(١) الخصائص ٢/٣٨٢ .

(٢) الخصائص ٢/٤١١ .

(٣) الخصائص ٢/٤٣٦ .

(٤) المحتسب ١/١٤٥ .

غير أن كلا من المفهوم والمصطلح يتعرض لشيء من التمدُّد ، وذلك في موضع آخر من الخصائص أثناء حديثه عن المجاز ، إذْ صرّح بقوله : «ومن المجاز كثير من باب **الشجاعة في اللغة** ، من الحذوف والزيادات والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف»(١).

ثم يعودان فيتعرضان لشيء **من التقلّص الكميّ في كلام منسوب إلى ابن جني على لسان تلميذه الشريف الرضيّ** ت٤٠٦ صاحب (المجازات النبوية) الذي نَسَبَ إلى شيخه ابن جني الحديثَ عن **(شجاعة الفصاحة)** دون أن يورد تعريفًا محدداً لها . غير أن ابن معصوم ت١١١٩هـ الذي نقل عن الرضيّ حديثه عن هذا النوع الذي عرّفه بأنه «عبارة عن حذف شيء من لوازم الكلام وثوقا بمعرفة السامع به»(٢). **بينما علل الرضيُّ التسميةَ بأن «الفصيح لا يكاد يستعمله إلاّ وفصاحته جريئة الجنان غزيرة الموادّ»**(٣).

أعرف أنني أطلتُ الاقتباسَ ، ولكنّي أحببتُ أن أورد الوحدة المصطلحيّة بكل متعلقاتها وما يحيط بها . وهنا نرى أنفسنا ـ كما سبق القول ، والتزامًا بحديث التناصّ ـ أمام ثلاث جهات ينبغي النظرُ منها ، كلاً على حدة ، هي : **المصطلح** ، **المفهوم** ، **التمثيل** .

المصطلح هنا هو مصطلح (الشجاعة) الذي أضيف مرة إلى اللغة مطلقا ، ومرة إلى العربية ، ومرة إلى الفصاحة ، ولن أُشغَل كثيراً بالمضاف إليه : اللغة أو العربية أو الفصاحة ، إذْ المجال العام دائما هو اللغة ، أما المجالُ الخاصّ فهو المواضع التي تحيد فيها اللغة عن النمط الصوابيّ المثالي أو المعياري .

كما أننا لا يجب أن نغفل عن أنّ ثمةَ تجوزًا في الإضافة ، إذ الشجاعة هي في الأصل صفةٌ لمتكلم اللغة ، أو متكلّم العربية أو المتكلم الفصيح ، وإن كانت مظاهرها تتبدّى في طريقة استعماله للغة .

---

(١) الخصائص ٢/٤٤٦ .

(٢) أنوار الربيع ٥/١٩٢ .

(٣) المجازات النبوية ٣٢١ .

هنا نجدنا مضطرين فى سبيل السَّعْى وراء المصطلح - خاصة مصدرَه - إلى أن نتتبَّع المفهوم .. وواضح أنها - أقصد الشجاعة فى اللغة - تدور حول معنى مخالفة المألوف فى الاستعمال ، يتضح ذلك من الظواهر التى أدرجها تحتها ابنُ جنّى : الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والحَمْل على المعنى والتّحريف ، وكذلك المجاز ؛ كما يتّضح من تعليل ضياء الدين بن الأثير لتسمية هذه الظواهر - بالشجاعة ، بأن **الشجاعة هى الإقدام** ، وأن الرجل الشجاعَ يركب ما لا يستطيع غيرُهُ ، ويَتَوَرّد ما لا يتوردُّه سواه[١].

بينما ذهب نجم الدين بن الأثير الحلبى ت٧٣٧هـ إلى أن الكلام المَتصفَ بتلك الصفات إنما سُمّى (شجاعة العربيّة) لأنه لمّا كان كلامًا فيه قوةُ يُتصرفُ بها فى المخاطبات من غيبةٍ إلى حضور ، ومن حضور إلى غيبة ومن تثنية إلى جمع ومن جمع إلى تثنية ، وتقديم وتأخير ... ومع ذلك لا يُنسبُ إلى خلل ولا تقصير فى استيفاء المعانى صار فى نفسه شجاعًا بالنسبة إلى العربيّة تشبيها بالرجل الذى تكون فيه شجاعةٌ تحمله فى الحرب على التقديم والتأخير [هكذا ، وأظنها : التقدُّم والتأخُّر] والقرب والبعد ، والإقبال والإدبار ... فحسنتْ تسميةُ الكلام المحتوِى على ما قدّمناه من التقسيم الذى شرحناه ، بهذه التسمية ، لأن الشجاعة فى مثل هذا الكلام تحمله على الجوَلان فى جوانب المعانى كيف شاء »[٢].

قلنا : إننا سنستعين بالمفهوم سعيًا وراء مصدر ابن جنى الذى استمدّ منه المصطلح - مصطلح الشجاعة - وقد لاحظنا أن كلاً من ضياء الدين بن الأثير ت٦٣٧هـ ونجم الدين بن الأثير الحلبى يركّز على الشَّبَه بين مسلك الشاعر المتفنّن ومسلك الشجاع المغامر ، أو بين طبيعة اللغة الأدبيّة فى تأبِّيها علىِ القواعد المعياريّة وجنوحها إلى الخروج عليها وطبيعة تصرّفات

---

(١) المثل السائر ٢/٤ .

(٢) جوهر الكنز ١١٦ .

الفارس الشجاع المغامر المتهاون بقواعد السلامة واحتياطات التوقّى ؛ ونحن نعرف أنّ مصدرهما فى ذلك ، بل مصدر كلّ من ذهب هذا المذهب كالعلوى ت٧٤٩هـ فى (الطّراز)(١) ، هو ابن جنى ، الذى سبق إلى عقد هذه المشابهة فى معرض الدفاع عن تجاوزات الشاعر المبدع المتأبى على قيود اللغة ، إذ قرن سلوكه هذا إلى سلوك الفارس المتهوّر المجازف .

يقول ابن جنى ـ بعد حديثه عن مجموعة الظواهر اللغويّة التى ذكرها ضمن (شجاعة العربيّة) : « فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها وانخراق الأصول بها .. **فاعلم أن ذلك على ما جَشِمه منه وإن دلّ من وجه على جَوْره وتعسُّفه ، فإنه من وجه آخر مؤذِنٌ بصِياله وتخمّطه** ، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته ولا قصوره عن اختياره الوجهَ الناطقَ بفصاحته .

بل مَثَلُه فى ذلك عندى مثَل مجرى الجَموح بلا لجام ، ووارد الحرب الضَّروس حاسراً من غير احتشام . فهو وإن كان ملومًا فى عنفه وتهالكه ، فإنه مشهود له بشجاعته وفيض مُنّته ، ألا تراه لا يجهل أن لو تكفّر فى سلاحه أو اعتصم بلجام جواده .. لكان أقرب إلى النجاة وأبعد عن الملحاة. لكنه جَشِم ما جشمه على علمه بما يُعقب اقتحامُ مثله إدْلالاً بقوة طبعه ودلالة على شهامة نفسه ...

فاعرف بما ذكرناه حالَ ما يرد فى معناه ، وإن الشاعر إذا أوْرد منه شيئا فكأنه لأنْسه بعلم غرضه وسفور مراده لم يرتكب صعبًا ولا جَشِمَ إلاّ أمَمًا ، وافق بذلك قابلا له أو صادف غيرَ آنسٍ به ، إلاّ أنه قد استرسل واثقا ، وبنى الأمر على أن ليس مُلْتَبِسًا »(٢).

---

(١) ١٣١/٢ .

(٢) الخصائص ٣٩٢/٢ ، ٣٩٣ .

هذا النصّ من ابن جنى يكشف عن المصدر الذى استمدّ منه بلاغيون أمثال ضياء الدين بن الأثير ونجم الدين بن الأثير الحلبى ويحيي بن حمزة العلوى ، وغيرهم ، فيما ذهبوا إليه من عقد المشابهة بين الشاعر والفارس، **لكنه لا يكشف لنا عن سرّ المشكل الأكبر ، وهو مصدر ابن جنّى نفسه فى عقد هذه المشابهة** . أو المماثلة ، بين سلوك الشاعر وسلوك الفارس ، الأول فى اجترائه على مقررات اللغة والثانى فى اجترائه على محاذير القتال . ونحن نذكر أن هذه المماثلة هى أحد المحاور الثلاثة التى سبقت الإشارة إليها فى هذه العملية التناصيّة التى نحن بصددها ، والتى يعدّ ابن جنى بطلها ـ أو منتجها الرئيسى ، أما المحوران الآخران فهما ـ كما سبق القول ـ المفهوم والمصطلح . وواضح أن مشكلة تصوّر المفهوم ـ فى ذاته ـ قد ذُلّلت ، وذلك من خلال حديث ابن جنى الذى مضى ، وأقول (فى ذاته) لأن مصدره ـ أى مصدر المفهوم ـ ما يزال ـ شأن مصطلح الشجاعة ـ يبحث عن المصدر .

هنا يعود بنا التداعي إلى مصطلح تحمّس له الجاحظ ت٢٥٥هـ، ويبدو ـ فى نظرنا ـ مهمًا بالنسبة لما نحن فيه ، أعنى البحث عن مصدر مصطلح (الشجاعة) عند ابن جنى .

فى سياق حديث الجاحظ عن بعضٍ من سنن العرب فى التشبيه والمجاز وتسْمية الكائنات بأسماء غيرها لمجرّد لَمْح المشابهة بينها ... يقول الجاحظ : «ويُروَى عن النبىّ صلى الله عليه وسلّم أنه قال (نِعْمتْ العمّةُ لكم النخلة ، خُلِقت من فضلة طينة آدم) »، ثم يتابع قائلا : «وهذا الكلام صحيح المعنى لا يعيبه إلاّ مَنْ لا يعرف مجاز الكلام. وليس هذا مما يطّرد لنا أن نقيسه ، **وإنما نُقدِم على ما أقدموا** ، ونُحجم عمّا أحجموا ، وننتهى إلى حيث انتهوا »⁽¹⁾.

---

(١) الحيوان ١/ ٢١٢ .

لنلحظ - مؤقتا - قوله (**أُنقدم على ما أقدموا**)، ولنمْضِ معه وقد راح يتحدّث في موضع آخرَ عن صور من التجوّز في استعمال مادة (ذوق).. فالرجل يقول لعبْدِه إذا بالغ في عقوبته : ذُقْ ، وكيف ذقته ؟ وكيف وجدتَ طعمه ؟ وقال الله عزّ وجل ﴿ ذُقْ إنكَ أنتَ العزيزُ الكريم ﴾ وقال الشاعر :

وإنّ الله ذاق حُلومَ قَيْسٍ　　فلمّا ذاق خِفّتَها قلاها

ثم يقدّم مزيداً من أمثلة المجاز في مادة (أ ك ل) فيقول : « وكما جوّزوا لقولهم (أكل) وإنّما عضّ ، و(أكل) وإنما أفنى ... جوزوا أيضًا أن يقولوا: (ذُقت) لما ليس بطعم ، ثم قالوا (طعمتُ) لغير الطعام »[١].

بعد ذلك - أي بعد هذه المجموعة من المجازات والاستعمالات الخاصّة - يقول الجاحظ « وللعرِب **إقدام على الكلام ثقةً بفهم أصحابهم عنهم** ، وهذه أيضًا فضيلة أخرى »[٢].

لنقفْ الآن عند هذا المصطلح (**الإقدام**) ولنسجّلْ أنه من مجال (الشجاعة) مصطلح ابن جني ، وأنه متعلق بالكلام كتعلّق الشجاعة عند ابن جنى باللغة مطلقا ، أو بالعربيّة خاصّةً ، وأنه صادر عن العرب ، ثم - وهذا هو اللافت - إنه تُوصَف به صورٌ من التجوُّز في الكلام ، وأنّ هذا التجوّز بما يُحتَمَل من غموضه مبررٌ - لدى الجاحظ - (بفهم أصحابهم عنهم)، تماما كما كان مبرّرُ الشجاعة عند ابن جنى (أُنْس الشاعر بعلْم غرضه وسفور مراده) .

إضافةً إلى ذلك أن كلاً من مواضع الإقدام عند الجاحظ ، وأمثلة الشجاعة عند ابن جنى **ليست مما يُقاس عليه** .. أما عبارة الجاحظ في ذلك

---

(١) الحيوان ٥/٣٢ .

(٢) نفس الموضع .

فهى : « **وليس هذا مما يطّرد لنا أن نقيسه** »، وأما عبارةُ ابن جنّى فهى : «**فهذا ونحوه مما لا يجوز لأحدٍ قياسٌ عليه**»[١]. وكما نلاحظ فإن العبارتين - وبينهما قرابة قرن ونصف من الزمان - تقتربان من حد التطابق ، بحيث لا أتصوّرنى مجازفا إذا قلتُ : إنّ مصطلح الجاحظ بمفهومه المتعلق باللغة كان حاضراً فى ذهن ابن جنى حالَ إطلاقه لمصطلحه .

نعم يلوح لى (الإقدام) - مصطلح الجاحظ الذى احتفى به الثعالبى ونقله عنه ، فى حديثه أيضًا عن المجاز ، كما نقل أمثلته ، وكلها صور من التجوّز[٢] - يلوح لى أن هذا المصطلح هو الذى أوحى لابن جنى بمصطلح الشجاعة ، خاصّة إذا ذكرنا عبارة ابن جنى : ومن المجاز كثير من باب الشجاعة فى اللغة ، وأنّ مصطلح الإقدام إنما جاء هو الآخر لدى الجاحظ وَصْفًا لنماذج من المجاز خالَفَ المتكلّمون بها الطرائقَ المعتادة فى اللغة العاديّة .

وبذلك نكون قد حللنا مشكلة المصطلح ، ومشكلة المفهوم الذى يقوم - كما سبق القول - على المجازفة ومخالفة المألوف فى السلوك والاستعمال .

ولقد سبق لى القولُ إن هذه الوحدة المصطلحية - الشجاعة - بمفهومها وبالصورة التى مثّلها بها ابنُ جنى تستلزم النظر من جهات ثلاث : المصطلح ، المفهوم ، التمثيل . وقد ذكرتُ الآن أننا قد حللنا مشكلة المصطلح والمفهوم ، أعنى مشكلة مصدرهما ، الذى لمحناه عند الجاحظ ، وبقى علينا البحث عن مصدر صوْرة الفارس المجازف المستعلى على تقاليد

---

[١] الخصائص ٢/٣٩٢ ، ٣٩٣ .

[٢] «فصل فى المجاز . قال الجاحظ : للعرب إقدام على الكلام ثقة بفهم المخاطب من أصحابهم عنهم» فقه اللغة ٢٣٨ .

التحفّظ والتوقّى التى مثّل بها ابن جنى للشاعر المتأبى على معايير اللغة. ولا يخفى أننى انتحى نوعًا من المسلك التفكيكى على نحو ما ، بحيث ألمح فى هذه الوحدة المصطلحية بكل مكوّناتها عند ابن جنى نوعًا مما سمّاه البلاغيون والنقّاد العرب (التلفيق) ـ أحد مصطلحات السرقات* ـ ولست أقصد إلى معنى السرقة ، وإنما أقصد أن ابن جنى العالم المتحرّر الفكر ، الواسعَ الأفق ، وقد استمدّ لإحدى الظواهر الأدبية اسمًا من خارج مجالها متأثّرا بسلفٍ له معتزلىّ واسع الأفق مثلِه هو الجاحظ ، قد شاء أن يكمل فكرته بصورة تمثيلية ، فشاء له بُعد اطّلاعه وعمقُ تمثّله لما يقرأ ، وكذلك شمولُ نظرته وقدرته ـ التى سبق التنويه بها ـ على الربط بين المتباعدات ، أقول : شاء له ذلك كلُّه أن **يستمد صورتَه التمثيليّةَ ـ فيما أقدّر ـ من نصّ شعرىّ جاهلىّ ، أُعجب به خليفةٌ أموىّ ، فى سياق نقاش فنىّ بينه وبين شاعر إسلامى شيعىّ .**

أما الشاعر الجاهلى فهو الأعشى الذى صنفه ابن سلام في الطبقة الأولى من الجاهليين ، وأما الخليفة الأموىّ فهو عبد الملك بن مروان الذى ولى الخلافة سنة ٦٥هـ وتوفى سنة ٨٦هـ، وأما الشاعر الشيعىّ فهو كثيِّر ابن عبد الرحمن المعروف بكثيِّر عزة المتوفى سنة ١٠٥هـ والذى صنفه ابن سلام فى الطبقة الثانية من الإسلاميين .

جاء فى (طبقات ابن سلاّم) : « دخل كثيّر على عبد الملك فأنشده مِدْحَتَه ، وفيها :

علَى ابنِ أبى العَاصِى دِلاصٌ حَصِينةٌ   أجادَ المُسَدَّى سَرْدَها وأذالَها

فقال له عبدُ الملك : أفلا قلتَ كما قال الأعشى لقيس بن معدى كرب :

وإذا تكونُ كتيبةٌ مَلْمومَةٌ   شهباءُ يخشَى الذائدونَ نِهالَها
كنتَ المقدَّمَ غيرَ لابسِ جُنةٍ   بالسيف تضرب معلَما أبطالَها

فقال [كثير] يا أمير المؤمنين وصفه بالخُرْق ووصفتُك بالحزم »(١).

لقد وقف خبرُ ابن سلاّم ودلالته عند هذا الحدّ - مجرد العَرْضِ من جانب عبد الملك لطريقةٍ فى المدح أفضل ، ومجرّد الردّ من جانب كثير بتبرير ما ذهب إليه . كل ذلك دون تعقيب من ابن سلام . وإنما نقلتُه ليتبيّن مدى التطوّر الذى لحق الخبرَ كما لحق تفسيرَه خاصة تلك الملاحظة التى أبداها عبد الملك ، وذلك عند ناقد قوى المراس متأخرٍ عن ابن سلام بما يزيد على قرن من الزمان هو قدامة بن جعفر ت٣٣٧هـ. جاء فى (نقد الشعر) :

« ومن الأخبار التى يُحتاج إلى ذكرها فى هذا الموضع وشرح الحال فيها ، ليكون ذلك مثالاً يُبنَى الأمرُ عليه ، ويُعلم به ما يأتى من مثله .. أن كثيرا أنشد عبد الملك بن مروان قوله فيه :

على ابن أبى العاصى دلاص حصينة … أجاد المسدّى نسجها وأذالها
يؤود ضعيفَ القوم حَمْلُ قتيرها … ويستصعب القرم الأشمّ احتمالها

فقال له عبد الملك : قول الأعشى لقيس بن معد يكرب أحسن من قولك ، حيث يقول :

وإذا تجىء كتيبة ملمومة … شهباء يخشى الذائدون نهالها
كنت المقدمَ غير لابس جنة … بالسيف تضرب معلمًا أبطالها

فقال : يا أمير المؤمنين : وصفتُك بالحزم والعزم ، ووَصَفَ الأعشى صاحبه بالطيّش والخُرق » .

ثم يقول قدامة :

« والذى عندى فى ذلك **أن عبد الملك أصحُّ نظرًا من كثيّر** ، إلاّ أنْ

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٢/٥٤٢ .

يكون كثير غالط واعتذر بما يعتقد خلافه ، لأنه قد تقدّم من قولنا فى أن المبالغة أحسن من الاقتصار على الحدّ الأوسط ما فيه كفاية ، والأعشى بالغ فى وصف الشجاعة ، حيث جعل الشجاعَ شديد الإقدام بغير جُنّة ، على أنه وإن كان لبس الجنَة أولى بالحزم وأحقٌ بالصواب ، ففى وصف الأعشى دليل قوىٌّ على شدّة شجاعة صاحبه ، وقول كثير يقصر عن الوصف »⁽¹⁾.

لقد أورد قدامةُ الخبرَ فى سياق تفضيل المبالغة فى المدح واستحسانها بالنسبة للاقتصار على الأمر الأوسط ، وزاد على خبر ابن سلاّم زيادات مهمة فى الخبر نفسه، ثم زاد بالتعليق عليه وإبداء الرأى فيه .

أما الزيادة فى الخبر فمنها فى قول عبد الملك لكثير : « قول الأعشى ... **أحسن** من قولك ... » وهى العبارة التى حورّها المرزبانى عندما نقل الخبر إلى : « قول الأعشى ... **أحبّ إلىّ** من قولك » ومنها فى قول كثير « وصفتُك **بالحزم والعزم** » بدلا من **(الحزم)** فقط عند ابن سلام ، وقوله : « وصفَ صاحبه **بالطَيْش والخُرْق** » ـ وهو ما زاده المرزبانى إلى « **الطيش والخرق والتغرير** » فى مقابل **(الخُرق)** فقط عند ابن سلاّم . وهذه ـ فى تقديرى ـ زيادات طبيعيّة مبْعثُها تصاعدُ الإحساس بقيمة ملاحظة عبد الملك فى ضوء انحياز النظرية البلاغيّة العربيّة إلى جانب المبالغة والتخييل وتَخلّيها عن المفهوم الأخلاقى للصدق .

لكن ما هو أهم من ذلك عندنا هو قوله:إن « **فى وصف الأعشى دليلا قويًا على شدّة شجاعة صاحبه لا أن الصواب له** » ثم قوله : إنه « بالغ فى وصف الشجاعة **حتى جعل الشجاعَ شديدَ الإقدام بغير جُنّة** »، ومعنى

---

(١) نقد الشعر ٦٩ ، ٧٠ .

العبارة الأولى : انفكاكُ الرابطة بين الشجاعة والصواب ، أو اتّباع القواعد ... الذى هو (لبس الجُنّة) والأخذ بسبُل التوقّى والاحتراس ؛ أما العبارة الثانية فتربط بين الشجاعة وشدّة الإقدام . فإذا أعدنا السلسلة من آخرها قلنا : **إن شدّة الإقدام هى الشجاعة** ، وهنا هو التسلسل الممكن على مستوى المصطلح ، من الجاحظ إلى ابن جنى عبْر قدامة .

فإذا وضعنا قول ابن جنى : « فهو [أى الفارس المندفع] وإن كان ملومًا فى عنفه وتهالكه ، فإنه مشهود له بشجاعته وفيض مُنّته» بإزاء قول قدامة «على أنه وإن كان لُبْس الجُنّة أولى بالحزم وأحقّ بالصواب ، ففى وصف الأعشى دليل قوىٌ على شدّة شجاعة صاحبه».. أمكننا الخروجُ بمفهوم للشجاعة نَبَعَ أولاً من بيتى الأعشى ثم استجادةِ عبد الملك لهما ، ثم زياداتِ قدامة وبسْطه فى شرح المفهوم منهما وتصحيح رؤية عبد الملك واستحسانَ رأيه فيهما . مفهوم يرى الشجاعة فى ترك الاحتراس واطّراح التوقّى ومخالفة المألوف وكسر المتوقع .

هكذا يبدو أن كلاً من مشكلة المصطلح ومشكلة المفهوم قد حُلّت ، أعنى ما يتعلّق بمصدر كلٍّ منهما . نظرتْ كلمةُ (الشجاعة) عند ابن جنى ، إلى كلمة (الإقدام) عند الجاحظ ، ونظر مفهومُ (الفارس الشجاع) عند ابن جنى إلى صورة الفارس المخاطر في بيتى الأعشى عبْر ملاحظة عبد الملك ثم تعليقات قدامة وشرحه .

مع كلّ ذلك تبقى خطوةُ أساسية لا بد من اجتيازها ، وذلك بالإجابة عن هذا السؤال : كيف تحولتْ صورةُ الفارس الشجاع فى بيتى الأعشى وملاحظات مَنْ تناولوهما .. من موضوع قائم بذاته هو صورة الفارس الشجاع المستهين بالخطر إلى طرَف فى عملية مماثلة بين الشاعر المبدع والفارس المغامر ؟ ولعل السؤالَ يكون أكثر دقة إذا جاء على نحو آخر .. هو: من الذى قام بهذه العملية ؟ وما مدخله أو مُستَنَدُه فيها ؟ ..

ولا محلّ للإجابة عن الشطر الأول من السؤال ، أقصد أنه لا داعى لها ، لأن كلّ ما مضى من حديثٍ يتّجه إلى أن ابن جنّى هو صاحب هذه الخطوة التى يمكن القول عنها إنها - إن جازت التسمية - من باب (**التناص عبْر المجاز**) ، إذ إننا هنا لا نتحدث عن لمح صورة قولية أو أسلوب قولى لصورة قولية أخرى أو أسلوب قولىّ آخر ، **إننا أمام صفة فى القول تلمح صفة فى الفعل** ، أو بعبارة أقرب : أمام عملية مماثلة بين صفة فى القول - أى فى المقول - وصفة فى الفعل أو السلوك . ليبقى الشطر الثانى من السؤال : ما مدخله ، أو مستنده فى عقد هذه المماثلة ؟ بل وما الذى سهّل عليه ورودَ هذا المورد ؟

وفى تصورى أنّ ثمة مدخلين إلى هذه النتيجة ، أحدهما (أدبى تاريخى) والآخر (شخصى فكرى).

أما عن المدخل الأول فنحن نلاحظ أن اقتران مجالى الإبداع فى القول والاستبسال فى القتال ليس جديداً على التراث العربى ، الإبداعى والتنظيرى ؛ فى مجال الإبداع يحدثنا أبو تمام - مثلا - عن (السيف) و(الكُتب) ، حين صدقت أنباء السيف وكذبت أخبار الكتب⁽¹⁾ ، كما حدثنا المتنبى عن (أقلامه) التى طلبت إليه أن يكتب بالسيف أولاً ثم يكتب بها بعد ذلك⁽²⁾.

ومن قبل ، قال كعب الأشقرى يفتخر بشجاعته :

إلاّ أكنْ فى الأرض أخطُبُ قائما فإنّى على ظهر الكُمَيْتِ خطيبُ

---

(١) فى قوله :

السيف أصدق إنباء من الكتب فى حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعب

(٢) فى قوله :

حتى رجعتُ وأقلامى قوائلُ لى المجدُ للسيف ليس المجدُ للقلم
اكْتب به أبداً قبل الكتاب بنا فإنما نحن للأسياف كالخدم

وقال ثابت قُطْنة :

فإلاّ أكنْ فيكم خطيبًا فإننى بسُمر القنا والسّيفِ جدُّ خطيبِ

بينما يمدح أبو العبّاس الأعمى بنى عبد شمس بقوله :

خطباءُ على المنابر فُرسا نٌ عليها وقالةٌ غيرُ خرس⁽¹⁾

ولا يخل بهذه الفكرة أن ينفى بعضهم عن نفسه صفةً ويُثبتَ أخرى أو أن تكون الفروسية على المنابر ، فالمهمّ فى رأينا هو التداعى بين المجالين .

أما على ألسنة المنظّرين فقد تحدّث البلاغيون والنقاد عن الشاعر الذى **يصيب هدفه ويصوّب كلامه** ، **أو يسدِّد عبارته** نحو فكرته ، كما سمّوا موضوعات الشعر ومعانيه أغراضًا ، ثم تحدثوا عن **إصابة الغرض وإصابة المرمى** .. وهذه مجرد ملاحظات عابرة لم نقصد إلى استقصاء ما يشاكلها ، ولكنها دالة فى رسم إطار أو خلفية تبرر مثل صنيع ابن جنى فى أن يعقد مماثلةً بين الشاعر والفارس ، وأن يطلق على تحدى الشاعر لمقررات اللغة اسم الشجاعة .

أما المدخل الآخر ، وهذا هو اللافت والخطير - أعنى المدخل الشخصى الفكرى - فينطلق من نظرة ابن جنى إلى اللغة ، وهى النظرة المتّسقة مع تفكيره الذى تؤكّد كلُّ الشواهد أنه من طبيعة تركيبيّة قادرة على الجمع بين الظواهر المختلفة من مجالات متباعدة ، ورصْد ما يكون بينها من شبَهٍ يقيم على أساسه قانونًا له حظ من الاطّراد والعموم .

اللغة فى تصوّر ابن جنّى ظاهرة اجتماعيّة ، وهى تقبل الخضوع فى تغيّرها لما تخضع له عناصر الطبيعة ، وتقبل - على سبيل الشرح - أن تُشبَّه أحوالُها بما يجرى على الطبيعة من أحوال ومتغيّرات .

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٣١ ، ٢٣٣ .

وعلى سبيل المثال قد تلحق تغيّرات معينة بعضَ كلمات اللغة لعلل عارضة ثم يحدث أن تزولَ العلة ، ومع ذلك لا يزول الأثرُ الذى ترتب عليها حتى بعد زوالها .. ، ويشبِّه ابنُ جنى هذه الحالة بغصن قطع من شجرته فأدركه اليُبس بعلة انقطاع الرطوبة ، ويقول إن هذه الحال ، التى هى اليُبس، لا يمكن تزول حتى لو زالت العلة وأُعيد الغصْن إلى قعر البحر ، كذلك الكلمات التى تلحقها بعض العوارض لعلل معينة ، فإن هذه العوارضَ لا تزول بزوال العلل⁽¹⁾.

ومن قبيل قياس أحوال اللغة على ظواهر الطبيعة أيضًا حديثه عن (لا) النافية للنكرة ، وكيف تُبنى مع النكرة فتصير كجزء من الاسم ، إنه يشبِّه هذه الحال من لزوم (لا) للاسم لا تفارقه ، بفرس زفر زفرة ثم ثبت واستمر على هذه الحال ، هكذا يكون الاسم مع (لا) ، يُبنى معها وتصير كجزء منه⁽²⁾.

---

(١) الخصائص ٣/ ١٦٠ ، ١٦١ . وقد جاء حديثه عن هذه الحالة ضمن (باب فى بقاء الحكم مع زوال العلة) ومثاله من اللغة عنده : أنّ فاء كلمة ميثاق - التى هى واو (وثقتُ) - انقلبت - للكسرة قبلها [فى الميم] - ياءً ، كما انقلبتْ فى (ميزان) و (ميعاد). هذه الكسرة فى ميم المفرد (ميثاق) تزول فى جمع التكسير الغالب (مَواثيق) وفى الصيغة القليلة (مَياثق)، وهذا معناه زوال علة قلب الواو ياءً وهى كسْر الميم فى المفرد ، إذْ انفتحت الميمُ فى الجمع ، ومع ذلك لم ترجع الياءُ واواً رَغم زوال علة القلب .

وهنا يتقدّم المَثَلُ من ناموس الطبيعة ، يقول ابنُ جنّى :

« وعندى مثَل يوضّح الحالَ فى إقرار الحكم مع زوال العلة ... وهو : العُودُ تقطعه من شجرته غضًا رطيبًا فيقيم على ذلك زمانًا ، ثم يعرض له فيما بعد من الجفوف واليُبس ما يعرض لما هذه سبيله ، فإذا استقرّ على ذلك اليبْس وتمكّن فيه ... لم يُغن عنه بعد أن تعيده إلى قعْر البحر فيقيم فيه مائة عام ، لأنه كان بَعُد عن الرطوبة بُعداً أوغل فيه حتى أيأس من معاودته البتةَ إليها » الخصائص ٣/ ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) الخصائص ٢/١٦٨ . ويقول ابنُ جنى : « نبّهنا أبو علىّ رحمه الله من هذا الموضع على أغراض حسنة ... وأنشدنا فى هذا المعنى [أى فى وصف فرس] : =

وكما يُستمدُّ المثالُ من ظواهر الطبيعة وقوانينها لشرح متغيِّراتِ اللغة وأحوالها .. كذلك يستمدّ من مجال العواطف والعلاقات الإنسانيّة لتوثيق الشَّبَه بين اللغة وبينها . ففى (باب فى مشابهة معانى الإعراب معانى الشعر) يقول إنه عند تنازع الفعلين معمولاً واحدا⁽¹⁾، فإن هناك مَنْ يختار إعمال الفعل الثانى لأنه العامل الأقرب، ويرى أن هذا شبيه بقول الشاعر :

بلى إنها تعفُو الكُلومُ وإنما   نُوكَّل بالأدْنَى وإن جَلَّ ما يمضي

أما إعمال الفعل الأول ، وهو العامل الأبعد ، فيشبه قول الطائىّ الكبير :

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب إلاّ للحبيب الأول

وقول كثير :

ولقد أردتُ الصبرَ عنكِ فعاقنى   عَلَقٌ بقلبى من هواكِ قديم

ويفوح من كلام ابن جنى تباهيه بقدرته على لَمْح هذه المشابهات التى يُحكم تعميمَها على اللغة وعلى غيرها .

وانظر فى هذا الصدد تقديمه لـ (باب فى التراجع عند التناهى) بقوله : «هذا معنى مطروق فى غير صناعة الإعراب ، كما أنه مطروق فيها ، وإذا تشاهدت حالاهما كان أقوى لها ، وأذهب فى الأنس بها . فمن ذلك

= خِيطَ على زَفْرةٍ فتمَّ ولَمْ   يرجعْ إلىَ دِقّة ولا هَضَم

وتأويل ذلك أن هذا الفرسَ لسعة جوفه وإجفار مَحْزِمه كأنه زفرَ فلما اغْتَرَقَ نفسه بُنِيَ على ذلك فلزمتْه تلك الزَفْرة فصِيغ عليها لا يفارقها كما أن الاسم بُنِى مع (لا) حتى خُلِط بها لا تفارقه ولا يفارقها ».

(١) الخصائص ٢/ ١٧٠ ، ١٧١ . من أمثلته عنده : ضربتُ وضربنـى زيدٌ . وضربنى وضربت زيداً .

قولهم: إن الإنسان إذا تناهى فى الضحك بكى ، وإذا تناهى فى الغمّ ضحك ... وإذا تناهت العداوةُ استحالت مودة » هذا القانون النفسى يقدّم به ابن جنى تمهيداً لظواهر لغوية يخضعها لنفس القانون(١).

هذه الخاصيّة الشمولية ، أو البعد التركيبى فى فكر ابن جنى ، إلى جانب ما مرّ بنا من شواهد الاقتران فى تراثنا العربى بين مجالى الحرب والإبداع القولى يجعل من صنيعه فى ربط المسلك القولى للشاعر المبدع فى تدبير المقال (المشبّه) ، ربطه بالمسلك الفعلى للفارس الشجاع فى ميدان القتال (المشبه به) امتداداً طبيعيا لكثير من ملاحظاته المماثلة ، خاصة بعد أن ظهر له الطرَف الأخير من التشبيه في بيتى الأعشى ، وهُدى إلى مكمن الحسن فيهما من ملاحظة عبد الملك ثم من متابعات قدامة .

بذلك نكون قد أكملنا بناء مثلث ابن جنى ، أو أعدْنا بناءَه ، وعرفنا مصادره . أعنى مصدر مصطلحه ومفهومه وصورته ، ولا شكّ أن (إقدام الجاحظ) كان وراء (شجاعة ابن جنى) وأن الجاحظ والنظرية العربيّة كلها - التى ساهم ابنُ جنى فى دعمها بنصيب كبير - كل ذلك كان وراء المفهوم على مستوى الأدب ، بينما كان الشعرُ والمُثُل الاجتماعية وراءه فى جانب

---

(١) من أمثلته عنده أن الجمعَ يُحدث للواحد المذكّر تأنيثا « نحو قولهم : هذا جمل وهذه جمال ، وهذا رجل وهذه رجال » فإذا جئت إلى جمع المؤنث من الأصل عدت به إلى صيغة المذكر، كأنك أردت أن تؤنث المؤنث فترده - وفقا لهذا القانون - إلى التذكير ، فتقول : ظلمَة وظُلم وسدْرة وسِدَر ».

هذا القانون يطبقه ابن جنى على ما عُرف بالتشبيه المقلوب ، فهم إذا بالغوا فى تشبيه شىء بشىء ، عادوا فجعلوا المشبَّهَ به مشبها أو الأصل فرعًا والفرع أصلا ، كقول ذى الرّمة .

ورمل كأوراك العذارى قَطعتُه إذا ألبسته المظلمات الحنادس

الخصائص ٢٤١/٣ ، ٢٤٢ .

السلوك . أما الصورة ـ صورة الفارس ـ فقد تكفل بها ـ كما قلنا ـ بيتا الأعشى وملاحظات عبد الملك وتفصيل قدامة .

وباكتمال مثلث ابن جنى والوصول إلى مصادره ينتهى حديثنا عن هذه العملية التناصية التى اطّلعنا منها على جانب من عبقريّة ابن جنى فى فهمه للظواهر أولاً ، ثم فى قدرته على تشخيصها والتمثيل لها ، وكيف أنه لمْ يكن يُعييه اقتناصُ المَثَلِ أو الصّورة الموضّحة حتى من المجال البعيد غير المتوقع على نحو ما رأينا هنا من مماثلته بين الشاعر والفارس ، وجعل كلٍّ منهما شجاعًا ، ولكن بطريقته التى تناسبه ، وهى ـ كما ترى عزيزى القارئ ـ صورة من التناص ، ولكنها صورة خاصة ، أبدعتها ـ فيما أزعم ـ عبقرية ابن جنى .

عبد الحكيم راضي

أول يونية ٢٠٠٦

سلسلة
الذخائر

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد نوار
أمين عام النشر
د. أحمد مجاهد
الإشراف العام
محمد أبو المجد

- الخصائص (الجزء الثالث)
- تأليف: أبي الفتح عثمان بن جني
- تحقيق: محمد علي النجار
- هذه الطبعة:

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - ٢٠٠٦م
نسخة مصورة عن (ج٣) ط١
دار الكتب المصرية ١٣٧٦هـ - فبراير ١٩٥٧م.
٤٥٦ ص. ١٦٫٥ × ٢٢٫٥سم

- تصميم الغلاف: محمد بغدادي
- رقم الإيداع: ٨٨٥١ / ٢٠٠٦
- الترقيم الدولي: 977-305-894-8
- المراسلات:

باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي: ١٦ أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدي ١١٥٦١
ت: ٧٩٤٧٨٩١٠ (داخلي: ١٨٠)

- الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: ٣٩٠٤٠٩٦

الذخائر ١٤٨

تعني بنشر نفائس التراث العربي بالمستوى الذي يحقق رغبة القارئ المعاصر من حيث التحقيق العلمي وحيوية المضمون المعرفي.

• هيئة التحرير •
رئيس التحرير
أ. د عبد الحكيم راضي
مدير التحرير
جمال العسكري

مستشارو التحرير
أ.د. السباعي محمد السباعي — أ.د. عبد الله التطاوي
أ.د. حسنين محمد ربيع — أ.د. عبده علي الراجحي
أ.د. حسين نصار — أ.د. محمد حمدي إبراهيم
أ.د. محمد عوني عبد الرؤوف

- حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
- يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

www.calturepalaces.com.eg

الذخائر
١٤٨

الخصائص

صنعة
أبى الفتح عثمان بن جنى

بتحقيق
محمد على النجار

قدم هذه الطبعة
د. عبد الحكيم راضى

الجزء الثالث

الهيئة العامة لقصور الثقافة
طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية

الخصائص

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الفكر البلاغي في كتاب الخصائص

- ٣ -

عزيزى القارئ .. هذا هو الجزء الثالث من (الخصائص) - الكتاب الفذّ للمؤلف العبقرى، أبى الفتح عثمان بن جنى - ولست أدرى لماذا أجد صعوبة فى الدخول إلى الحديث عنه ، بل إن الكتاب بكل أجزائه قد تعاظم فى عينى وتكاثرت القضايا التى يحتويها وتشعبت حتى غدت الإحاطة به أمرًا أقرب إلى الصعوبة ، وبدا الأمر فى عينى أشبه بطود باذخ لا تستطيع الإحاطة به أو الظفرَ بنظرة كلية إليه إن أنت نظرت إليه من قريب ... ويبدو أن هذا ما حدث لى مع أجزاء الكتاب ، لقد بدأ الحديث سهلاً فى البداية، ومع الاقتراب منه شيئًا فشيئًا بدأ تعاظم المنظر وترامى الأطراف ، حتى إذا جاء الدور على الجزء الثالث وجدتنى أتذكر تلك القصة التى كانوا يحكونها لنا إبان فترة الطفولة .. حكاية الرجل الطيب (الأقرب إلى السذاجة) الذى جلس فى أحد الأفراح إلى مائدة حافلة بكل الأصناف والألوان ، أينما أدار عينيه وجد مالذّ وطاب ، المدعوّون حوله كلٌّ منهم عرف طريق يده ، فراح يلتهم ما وقع عليه اختياره ، بعد أن وقع عليه بصره .. أمّا هو فقد أصرّ على أن يتأمل أوّلا كلّ الأصناف وأن يتعرّف عليها ، وأن يجرى موازنة بينها، ثم وجد فى نفسه الميل إلى أن يتذوقها جميعًا ، وبدأ يفكر بأيّها يبدأ ، وبأيّها يثنّى، وعلى أى أساس يكون البدء ... إلخ . وماهى إلاّ لحظات حتى كان

أوان الطعام قد انتهى وانفض الناس من حول الموائد دون أن يكون هو قد ذاق شيئًا أو حتى لمس أى شيء .

ذلك – عزيزى القارئ – هو إحساسى وتخوّفى من أن ينتهى بى الأمر إلى ما انتهى بذلك الرجل الذى وثق بقدرته وتصوّر أن الوقت سَيَسَعُه وأن الفرصةَ ستمكنه ، ثم لم يظفر فى النهاية بشيء.

كان تقديرى أن أتحدث عن كلّ جزء من الأجزاء الثلاثة للكتاب متّبعًا أسلوبَ الاقتراب منه بالحديث عن أبرز المسائل التى جرت معالجتها فيه ، فكان الحديث فى تقديم الجزء الأول عن قضية اللفظ والمعنى وهو الحديث الذى اكتمل مع تقديم الجزء الثانى الذى دار محوره الرئيسىُّ حول (شجاعة العربية) – المصطلح والمفهوم والتمثيل للمفهوم – ولست أزعم أننى وفّيتُ أيًا من الموضوعين حقّه ، يكفى أن اعترف بأن حديثى عن (شجاعة العربيّة) كان مدفوعًا بالرغبة فى الكشف عن المنابع التى استمّد منها ابن جنى مادة المصطلح ومفهومه والتمثيل له ، دون أن أتجاوز ذلك إلى تفاصيل الحديث عن الظواهر المتنوعة التى سلكها ابنُ جنى فى إطار شجاعة العربية من التقديم والتأخير والحذف والتحريف والحمل على المعنى ... إلخ . ، ومع ذلك كان لابد من الأخذ بالكلمة الشائعة (ما لا يدرك كله لايترك كلّه) .

وجاء الدور على الجزء الثالث ، ومعه كان تعاظم الإحساس بضخامة مادة الكتاب ، وبأنّ الكثير مما يحتاج إلى الحديث قد مرّ فى الجزءين السابقين دون أن يوفى حقه ، وأن ذلك نفسه هو المنتظر مع الجزء الثالث ، أعنى أن كثيرا مما يحتاج إلى الحديث سوف يتفلّت من دائرة الانتباه مهما ضُوعِفَ الجهدُ وحسنت النيّة .

ثم كان السؤال الأخطر : هَبْ أننا قدّمنا كل جزء من أجزاء الكتاب بالحديث عن أهم ما فيه .. فما الرابط الواصل بين ما فى الأجزاء مجتمعةً ؟ خاصّة فى ضوء ما لا ينبغى التغاضى عنه ، وهو أننا نتحدث عن الفكر البلاغى فى الكتاب ، وأننا كثيرًا ما ألمحنا إلى أن مؤلفه له فكره الخاص ورؤيته الخاصة اللذان لاشك فى أن لهما حظهما من العموم والاطّراد فى مباحث الكتاب مهما يكن تنوعها .

وهنا يكون علينا أن نحدد هذه الرؤية ، وأن نكشف هذه النظرة ، أعنى – كما يقتضى منطق الأمور – نظرته إلى لغة الفن الأدبى التى هى موضوع الفكر البلاغى ومادته .. نعم .. لأن البلاغىّ يفكر فى لغة الأدب من جميع جوانبها : ماهيتُها ، وأداتها ووظيفتها ، أو وظائفها . وهذا بدوره – يقتضى منا أن نعود فنعرّج على كثير من المواضع فى الكتاب ، فلا نقتصر – كما هو المظنون – على النظر فى الجزء الثالث .

* * *

إذا كان لنا أن نفترض مبدأ يعم نظرات ابن جنى فى كتبه قلنا إنه ينطلق من الإيمان بأن هذه اللغة – التى عرَّفها بأنها "أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم" [٣٣/١] – لابد أن تؤدى شيئا ، هذا ما جاء فى تعريفها ، إذ هى تحمل أغراض أهلها ، أى معانيهم . فالمعنى المطلوب إيصاله – أى الذى تحمله اللغة – هو الأصل، وإليه تتجه وظائف بقية العناصر الصوتية وغير الصوتية ، لكننا نقتصر الآن على عنصر الصوت أو اللفظ وما يراه فيه ابن جنى من أنه حامل المعنى أو حتى خادمه ، فالمهم هو أن هذا العنصر – الصوت – هو مرآة المعنى .. هو معرضه ، هو – حسب تشبيه ابن جنى –

وعاؤه الذى يحمله . يقول ابن جنى: إنه على قدر الاهتمام بالمُوعَى تكون العناية بالوعاء ... أى إنك تجوِّد لفظك خدمةً لمعانيك [٢١٧/١].

لقد سبق لنا الحديث عن هذه المسألة ، وقلنا إن ابن جنى قد قضى نهائيا على ما كان يظن من إحساس بالازدواجية بين اللفظ والمعنى .. أقول (قضى نهائيًا) لأنه وحّد جهة العمل ، كما وحد الجهد اللازم للنهوض بكلا العنصرين .

فالمعنى – الذى هو الغاية والغرض – هو العنصر المحايد الكامن الذى يفرِض مقتضياته ، على حين يجرى العمل وكل صور النشاط فى اللفظ ، خدمةً – كما يقول – للمعنى ...

وعلى أساس العمل لترقية اللفظ ودرجة هذ الرقى يتحدد المستوى الأدبى بل تتحدد اللغةُ إنْ كانت أدبية أو عاديّة ، ثم تتحدد درجة الأدبية ، كلّ ذلك على أساس مستوى اللفظ .

من هنا تسرى فى كتاب الخصائص روح العناية باللفظ ، سفير المعنى وحامله ، **بدءًا من حالته صوتا مفردًا إلى كونه صيغة صرفية من جهة ، ووحدةً دلالية مفردة من جهة أخرى، إلى انسلاكه فى تركيب له خصوصيته** .. والهدف فى جميع الحالات – كما قلنا – هو حسن التعبير عن المعنى ، إذ إنّ لكل طبقة من هذه الطبقات : الصوت المفرد ، الصّيغة الصرفية ، الوحدة الدلالية ، التركيب .. دَوْرَها فى حمل المعنى من جهة ، ومنحه خصوصيّته من جهة ثانية .

الصّوت المفرد له – فى تقدير ابن جنى – قيمتهُ الدلالية . بمفرده أو مع غيره من الأصوات ، والصّيغة الصرفية لها أيضا دلالتُها ، وهى قد تأتى

على وفق القاعدة الصّرفية فلا تحمل أكثر من المعنى التقليدى المعروف ولا تلفت الانتباه بأكثر من ذلك ، وقد تسلك سبيل المغايرة والانحراف عن المعتاد فى مثلها ، فيتعاظم معناها ، فتجذب المستمع أو القارئ بما طرأ فى صيغتها؛ وكذلك اللفظة المفردة باعتبارها وحدة دلالية ، فهى قد تبقى على مدلولها الحقيقى وقد تخرج عنه إلى دلالة مجازيّة جديدة ، وهى فى الأولى لفظة عادية ، وفى الثانية مفردة متميّزة فيها من الإثارة والتحريك وتأكيد المعنى وتضخيمه ما ليس للأولى .. وقُل مثل هذا فى التركيب الذى قد يسلك السبيل المعيارىَّ بالمحافظة على قوانين الرُّتْبة والتعريف والتنكير والذكر والحذف ... إلخ ، فيكون تركيبًا عاديًّا ، وقد يخرج على هذه القوانين فيحمل دلالات غير مألوفة ويوصف عندئذ بصفات تلائم مدى خروجه عن المعتاد من قوانين التركيب ، وربما استحق الوصف بـــ (الشجاعة) – شجاعة اللغة أو شجاعة العربيّة – التى مرّ بنا الحديث عنها فى تقديمنا للجزء الثانى .

لقد جمع ابن جنى هذه الدلالات على – نحو تقريبى – فى أحد أبواب الجزء الثالث أطلق عليه (باب فى الدلالة اللفظية والصناعية والمعنوية) ، وأقول : (على نحو تقريبى) لأنه لم يقف عند بعض التفاصيل التى أشرنا إليها – إنه يتحدث فى (الدلالة اللفظية) – مثلا – عن دلالة مسموع أصوات الفعل (ض ر ب) على حَدَثه – أى على الضرْب لا على الأكل – ودلالة صيغته (وزن فَعَل) على الزمن الماضى ، ثم دلالة معناه وأنه فِعْل على أنّ له فاعلاً ، وأن هذا الفاعل لابد أن يكون مذكرًا يصحُّ منه الفعل . وقد نزيد فنقول إن (ضرَب) بما أنه فعل متعدٍّ يدل بالضرورة على أنّ له مفعولا .. أى أنه يشير إلى فاعله ومفعوله وما تجرُّه هذه الإشارة إلى البعد التركيبى الذى تكتمل به دلالة الجملة [انظر٣/٩٨ وما بعدها] .

ونعود إلى البداية .. أصوات الكلمة تحمل معناها .. الضاد والراء والباء تحمل معنى الضرْب ، والهمزة والكاف واللام فى (أكَلَ) تحمل معنى الأكْل .. كلّ مجموعة من الأصوات تحمل معنى مختلفا عن المعنى الذى تحمله مجموعةٌ أخرى .. وهذا أمر طبيعى ، وله فى الوقت نفسه معناه : الأصوات المختلفة تحمل معانى مختلفة ، ويظل لكل مجموعة من الأصوات معناها أو تحتفظ بهذا المعنى ، أو يبقى لها منه قاسمٌ مشتركٌ حتى لو اختلف ترتيب هذه الأصوات فى الكلمة .. وانظر حديثه فى بابه الذى أطلق عليه (الاشتقاق الأكبر) والذى يبدو من حديثه أنه هو صاحب تسميته [١٣٣/٢] وإن لم ينفرد بتصوّره . وذلك " أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستّة معنى واحدًا تجتمع التراكيبُ الستّةُ وما يتصرّف من كلّ واحدٍ منها عليه ، وإنْ تباعَدَ شيءٌ من ذلك عنه رُدَّ بلطف الصنْعة والتأويل إليه [١٣٤/٢] ، "فمن ذلك تقاليب (ج ب ر) فهى – أين وقعت – للقوة والشّدّة، منها (جبَرتُ العظمَ والفقيرَ) إذا قوّيتهما وشددتَ منهما، و (الجَبْرُ) الملك لقوّته وتقويته لغيره... ومنه (البُرْج) لقوته فى نفسه وقوة ما يليه به ... ومنها (رجّبْتُ الرجلَ) إذا عظمته وقوّيت أمره ... ومن ذلك تراكيب (ق س و) (ق و س) (و ق س) (و س ق) (س و ق) ... وجميع ذلك إلى القوة والاجتماع ... ومن ذلك تقليب (س م ل) (س ل م) (م س ل) (م ل س) (ل م س) (ل س م) ، والمعنى الجامع لها المشتمل عليها الإصحاب والملاينة " [١٣٦/٢ ، ١٣٧ وراجع التفاصيل والشرح فى بقية الباب حتى ص ١٣٩].

وهكذا يبقى التوّحدُ فى المعنى ما توحدّت الأصواتُ المكوِّنة للكلمة ، فإذا وقع الاختلاف أو التباعد بين بعض الأصوات وقع مثلهُ فى المعنى مع بقاء التقارب فى المعنى بقدر ما توحّد من الأصوات، وذلك ما نلقاه فى

الخصائص فى (باب فى تداخل الأصول الثلاثية والرباعيّة والخماسية) [٤٤/٢ وما بعدها] ، ثم فى (باب فى تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى) [١٤٥/٢] حيث يطوّر نفس الفكرة – فكرة الدْور الذى يؤديه الصوتُ المفرد فى دلالة الكلمة، فإذا اتحدت الأصوات اتحدت الدلالة، وإذا اقتصرت الأصوات على مجرّد التقارب –لا التماثل– اقتصرت الدلالة أيضًا على التقارب .

فى هذا الباب (التصاقب) يعيد ابنُ جنى بعض أمثلة الباب السابق ، ثم يطوّر التجربة ، فإذا كان فى باب (تداخل الأصول الثلاثية) قد لفت النظر إلى أثر تماثل بعض الأصوات فى تقارب الدلالة فإنه فى باب (التصاقب) يلفت النظر إلى أثر افتراق بعض الأصوات فى الكلمتين مع تماثل الباقى ، فيحدثنا عن الفرق بين (العَسْف) و (الأسْف) بمقدار ما بين العين والهمزة من قوة فى الهمزة بالنسبة إلى العين ، كما يحدثنا عن الفرق بين الفعل (تؤُزّهم) والفعل (تهزّهم) بمقدار قوة الهمزة بالنسبة إلى الهاء أيضًا [١٤٦/٢] ، وهى فروق موجودة ولكنها بسيطة ، موجودة بفعل اختلاف الصوتين ، وبسيطة هينة بفعل حقيقة القرب بينهما .

يؤمن ابن جنى بحتميّة الصلة بين الصوت والمعنى ، سواء على مستوى الصوت المفرد أو مستوى الوحدة الصرفية ، ويواصل حديثه فى شرح الفكرة على المستوى الأول – مستوى الصوت المفرد – فى باب آخر هو (باب فى إمساس الألفاظ أشباه المعانى) ، "وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبّر عنها ، فيعدلونها ويحتذونها عليها ... من ذلك قولهم (خضم) و (قضم) فالخَضْم لأكل الرطْب ، كالبطيخ والقثّاء وما كان نحوهما من المأكول الرَّطب ، والقضم للصّلب اليابس ، نحو: قضمت الدابّة شعيرها ... وعليه قول أبى الدرداء : (يخضمون ونقضم ،

والموعد الله) ، فاختاروا الخاء لرخاوتها للرّطب ، والقاف لصلابتها لليابس ، **حذوًا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"** [٢/١٥٧، ١٥٨] .

ذلك عن أصوات الحروف التى راعوا جَعْلَها على سَمْت الأحداث، ليظهر لنا جليا أن للصوت المفرد نصيبه من المعنى ، لكن الأمر لا يقتصر على هذا القدر ، إذ يتعدّاه إلى الصيغة الصرفية ودورها فى الدلالة ، حيث (الدلالة الصناعيّة) ، أو ما يُعدّ تطويرًا لها ، وللمسألة بعض جذور قديمة أخذ بها ابنُ جنى الذى ينقل عن الخليل تفسيرهُ لقولهم (صرّ الجندبُ) و(صرْصرّ البازىّ) وذلك لما توهموه فى الأول من مدّ واستطالة ، وما توهموه فى الآخر من صفة التقطيع . كما ينقل عن سيبويه قوله فى المصادر التى جاءت على وزن (فَعَلان) " إنها تأتى للاضطراب والحركة ، نحو الغليان والغثيانِ ، قال ابنُ جنى: " فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الأفعال" [٢/١٥٢] .

وقد أضاف من عنده أمثلة من المصادر الرباعيّة المضعّفة التى تأتى للتكرير، نحو: الزّعزعة والقلقلة والصلصلة ، كما تحدّث عن مجىء صيغة (استفعل) فى أكثر الأمر للطلب ، نحو : استسقى واستْطعم واستوْهب واستمْنَحَ . يقول ابنُ جنى : "فرُتّبت فى هذا الباب الحروف على ترتيب الأفعال" [٢/١٥٣] .

ثم يقول : " ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العيْن فى المثال دليلا على تكرير الفعل ، فقالوا : كسّر وقطّع وفتّح وغلّق ، وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعانى فأقوى اللفظ ينبغى أن يقابل به قوة الفعل ... فلما كانت الأفعال دليلةَ المعانى كرّروا أقواها - [أى أقوى حروفها] - وجعلوه دليلا على قوة المعنى المحدّث به ، وهو تكرير الفعل ، كما جعلوا تقطيعه [أى تقطيع

الصوت] فى نحو (صَرْصَرَ) و (حقْحق) دليلا على تقطيعه [أى على تقطيع الفعل] " [١٥٥/٢].

وكما نرى فإن الحديث متكرّرٌ على لسان ابن جنى عن العلاقة بين قوّة اللفظ وقوة المعنى وذلك بمناسبة مجيء الصيغ الصرفية مناسبة بقوة بنائها – بتكرار صوت أو أكثر من صوت ، أو بالزيادة فى أولها أو بالتزامها بناءً معينًا – تمشيًا مع معنى معين يرادُ التعبيرُ عنه ، مما يؤكد ما قلناه عن إيمان ابن جنى بأنّ للصيغة الصرفية – كما للصوت المفرد – نصيبًا من الدلالة .

حديث الصيغة الصرفية فيه من الغنى والثراء على مستوى النظرية الأدبية الشيء الكثير ، من أهم ما فيه أن اختيار الصيغة والتصرّف فيها وتحويلَها عملٌ من صنع المتكلم ، [٢٦٤/٣] ، صحيح أن بعض تحقّقاتها يكتسب طابع المتواضَع عليه ، مثل صيغ الأفعال الدالة على أزمنتها ، ولكن يبقى للمتكلم اختيارُ ما يستعمل منها ، إضافة إلى الكثير من صور التصرف فى اختيار الصيغ وصكّها فى الأفعال والصفات.

ويُشبعُ ابنُ جنى الفكرة بحثا – أعْنى فكرة زيادة اللفظ عملا على زيادة المعنى – فى باب يحمل عنوانه هذا المعنى ، (بابٌ فى قوة اللفظ لقوة المعنى) وتكثير اللفظ هو (المفعول) وتكثير المعنى هو (المفعول لأجله) والقاعدة عنده أنه "إذا كانت الألفاظ أدلّة المعانى ، ثم زيد فيها شيءٌ أوجبت القسمةُ له زيادةَ المعنى به ، وكذلك إن انحُرِفَ به عن سمته وهَدْيَته كان ذلك دليلا على حادث متجدد له ، وأكثر ذلك أن يكون ما حدث له زائدًا فيه لامنتقصًا منه " كقولهم فى الفعل : خَشُنَ واخشوْشَنَ ، وقدَرَ واقتدر، وفى الصفات : حَسَنٌ وحُسَّان وطويل وطُوّال وخفيف وخُفَاف [٢٦٨/٣] وقد ذكر فى موضع آخر أنّ " من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله " [٢٦٧/٣] يعنى معتاد

حال اللفظ ، وهى صياغة أعمّ ، غير أن كلّ بياناتهم فى هذا الصدد تفضى إلى نتيجة واحدة هى إيمان ابن جنى بأن للصيغة الصرفية – كما للصوت المفرد – نصيبًا من المعنى ودورًا فى إيجاده ، إلى جانب عنصرى الدلالة والتركيب .

فإذا تركنا جانبَ المسموع – الصوت المفرد والصيغة الصرفية – إلى بعد آخر هو **اللفظة المفردة كوحدة دلالية .. وجدنا حديث ابن جنى عن الحقيقة والمجاز** ثم حديثه المفضى إلى طابع (النسبيّة) فى هاتين الصفتين – أعنى الحقيقية والمجازيّة.

ويشمل حديثُه فى (فرق بين الحقيقة والمجاز) تعريفه لكلٍّ منهما ، فالحقيقة " ما أُقرَّ فى الاستِعمالِ على أصل وضعه فى اللغة . والمجاز : ما كان بضدّ ذلك " [٤٤٢/٢] والمتأمّل لأمثلة المجاز عنده يجد أنها تشمل كلاّ مما أطلق عليه عبد القاهر : المجاز اللغوى ، أى المجاز فى الكلمة المفردة ، وما أطلق عليه اسم المجاز العقلى ، أى المجاز فى الجملة، مع إطلاق اسم (المجاز) على النوعين دون تفرقة . وواضح من أمثلته للمجاز المفرد أنه يُدخل فيه التشبيه المحذوف الأداة ، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى فرسٍ له : (هو بحر) ، ويرى أن فائدة المجاز التى يُعدَل إليه من أجلها عن الحقيقة هى : **الاتّساع، والتوكيد ، والتشبيه** [٤٤٢/٢ وما بعدها] وقد وقف فى بعض المواضع على بعض مظاهر المجاز التى أخذ بها اللاحقون عادّين إياها من المجاز المرسل نحو : الاكتفاء بالسبب عن المسبَّب وبالمسبّب عن السبب [١٧٣/٣] كما عقد بابا آخر بعنوان (باب فى الاستخلاص من الأعلام معانى الأوصاف) ، وخلاصته أنه لغلبة صفات معينة على بعض الأعلام اعتُبرت

أسماؤهم أعلاما على هذه الصفات ، فصارت أسماءُ الأعلام مما يُستعار لهذه الصفات بهذا المعنى، أو يشبّه بها . وجاء من أمثلته عنده قول أبى تمام:

فلا تحسبا هندًا لها الغدر وحدها   سجيّة نفس ، كل غانية هنـــدُ

" فقوله (كلّ غانية هند) متناه فى معناه وآخذ لأقصى مداه ، ألا ترى أنه كأنه قال : كل غانية غادرة أو قاطعة أو خائنة أو نحو ذلك " [٢٧١/٣] ، وهى مسألة وقف عندها المتأخرون حيث ناقشوا مجيء صلاحية أسماء الأعلام لأنْ تجرى فيها الاستعارة ، وشروط هذه الصلاحية ، ونوع الاستعارة فى هذه الحالة ، [ينظر : الإيضاح للقزوينى ، شروح التلخيص ٤/٧٠-٧٢].

لكن الطريف عنده ، واللاّفت ، فى حديث المجاز هو ما ذهب إليه من: أنّ "أكثر اللغة مع تأمُّله مجاز لا حقيقة " ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ما ذهب إليه من " أن المجاز إذا كثُرُ لحق بالحقيقة" [٤٤٧/٢] وهما نظرتان متكاملتان ، أوْ هما شطرا نظرة واحدة تتعلق بمسلك اللغة وتطوّرها الدلالى .

أما أن أكثر اللغة عند تأمّله مجازٌ لا حقيقة فـــ " ذلك عامة الأفعال ، نحو : (قام زيدٌ) و (قعد عمرو) ... ألا ترى أن الفعل يفادُ منه معنى الجنسيّة، فقولك (قام زيد) معناه : كان منه القيام ، أى هذا الجنس من الفعل، ومعلوم أنه لم يكن منه جميعُ القيام .. فإذا كان كذلك علمتَ أنّ (قام زيد) مجاز لا حقيقة، وإنما هو على وضع الكلّ موضع البعض للاتّساع والمبالغة وتشبيه القليل بالكثير " [٤٤٧/٢ ، ٤٤٨] .

وهذه الوظائف الأخيرة – الاتساع والمبالغة والتشبيه – هى وظائف المجاز عند ابن جنى ، أما تشبيه القليل بالكثير – أو وضع القليل موضع الكثير ، أو الجزء موضع الكلّ ، فإحدى علاقات ، أو ملابسات، المجاز

المرسل لدى المتأخرين ، أدخلها ابنُ جنى – قبل مرحلة الفصل بين المجازين المرسل والاستعارى – ضمن المجاز عنده . قد تعددت ملابسات المجاز المرسل (باصطلاح المتأخرين) فى كلام ابن جنى . [انظر ٤٥٠/٢] وهو يجعل من المجاز نسبة الفعل إلى الآمر به لا إلى الفاعل الحقيقى ، كما تنبّه إلى تسمية الشىء باسم ما يؤول إليه [المحتسب ٣٤٣/١، ٣٤٤] .

وأما لحوق المجاز بالحقيقة فإنما مرجعه إلى كثرة استعمالهم إيّاه وشيوعه فى لغتهم وسلوكه طريقة الحقيقة فى استعمالهم حتى إنهم وكّدوه كما وُكدت الحقيقة [٤٥٣/٢، وراجع ١٧٧/٢] وهى نظرة لها وجاهتها ومستندها فى تفكير المحدثين من علماء اللغة الذين قرروا أن ما نسميه بالاستعمال الحقيقى ما هو إلاّ تطوّر لاحق على الاستخدام المجازى [انظر اللغة لـ : ڤندريس ١٩٩ ، ٢٠٠] .

اللفظ فى تقدير ابن جنى يشمل الهيئة التركيبيّة أيضا، نعم . فاللفظ هو المصطلح الذى يستوعب مفهومُه المنطوقَ بكلِ مستوياته: الصوت المفرد ، وما يزيد على الصوت المفرد ، إلى كل أصوات الكلمة ، إلى هيئتها الصرفية ودلالتها ، وكذلك الهيئة التركيبية لما زاد عن الكلمة .

والمعنى دائما هو الحاكم .. هو المقتضِى – بصيغة اسم الفاعل – واللفظ هو المقتضَى بصيغة اسم المفعول .. هو الذى يؤتى به ليحمل المعنى المراد .. ليُعرَفَ هذا المعنى به – أى باللفظ – وكأنه قبل ظهوره باللفظ يكون غير معروف ، فإذا تجلى فى وعاء اللفظ عُرف وحُكم عليه من واقع الصورة التى تجلى بها ، أى من واقع تحققه الفعلى من خلال لفظه الحامل له..

وهذا من شأنه أن يعيدنا إلى العبارة المشهورة للجاحظ ، والتى قدم بها حديثه عن (البيان) : " قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانى : المعانى القائمة فى صدور الناس .. المتصوَّرة فى أذهانهم .. والحادثة عن فكرهم .. مستورة خفيّة ومحجوبة مكنونة ، وموجودة فى معنى معدومة ... وإنما يحيى تلك المعانى ذكرُهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إيّاها ، وهذه الخصال هى التى تقرّبها من الفهم وتجلّيها للعقل ، وتجعل الخفىَّ منها ظاهرًا ... وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة يكون إظهارُ المعنى ..." [البيان والتبين ٧٥/١] .

هذا النص الذى قلتُ عنه فى بعض ما كتبتُ من قبل [ينظر كتابى : الأبعاد الكلامية والفلسفية فى الفكر البلاغي والنقدى عند الجاحظ] إنه كان منطلق التفكير الأشعرى فى فكرة المعانى القائمة بالنفس ، والتى انتهت عندهم إلى القول بقدم المعانى وحدوث اللفظ وتجدّده .. هذا النص يمثّل – فى تقديرى – تصورّ ابن جنى للعلاقة بين اللفظ والمعنى – المعنى الكامن المحايد ، واللفظ الذى هو مناط الإبداع ، وعليه مدار النشاط والعمل .

ونعود إلى اللفظ عند ابن جنى بمفهومه المركب الزائد على الكلمة المفردة ، لنجد له نفس القيمة ونفس الموقع الدقيق فى علاقته بالمعنى .. المعنى هو الحاكم وهو المقتضِى واللفظ هو المحكوم وهو المقتضَى ، غير أن هذا هو التصور المنطقى المنطلق من مسلمة أن المعنى هو الغاية واللفظ هو الأداة والوسيلة ، لكن الواقع العملى فارضٌ نفسه دائمًا ، فاللفظ سواء على مستوى الصيغة الصرفية أو التركيب النحوى هو مجال عمل البليغ – أو المتكلم عمومًا – سعيًا منه إلى إبراز المعنى بكامل قوته ، حتى لو تم ذلك على حساب اللفظ ، وهذا هو عنصر الدقة والحساسية فى علاقة الجدل بين

اللفظ والمعنى ، فالمعنى يتطلب اللفظ ، لكنه لا يُعرف إلا به ، فضلا عن أن يكون له وجود ، واللفظ المتحقق مفروض أن يَحترم المعنى وأن يجئ وفقًا لمقتَضَياته ولو على حساب نفسه ، أى وإن أدى هذا إلى الجوْر على سلامة اللفظ وكمال صحته ، وهذا ما تحمله أبواب من الخصائص:

(فى الفرق بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى) ٢٧٩/١.

(باب فى تجاذب المعانى والإعراب) ٢٥٥/٢ .

(باب فى التفسير على المعنى دون اللفظ) ٢٦٤/٣ .

فـــ " العرب قد تحمل على ألفاظها لمعانيها حتى تفسد الإعراب لصحة المعنى" [المحتسب ٢١١/٢] ، لذلك فقد تستعين بالوجه الأضعف [٣/٦٠، ٦١]، وقد تلزم الضرورة فى حَال السّعة [٣٠٣/٣ ، ٣٠٤] ، وبالتالى فلا مانع من العدول – أو الانحراف – عن الإعراب الواجب تحقيقا لقيم معنويّة ، حتى وإن وقع ذلك فى مواضع من كتاب الله عزّ وجلّ [الخصائص ٣٩٨/١، ٣٩٩].

ولاشك أن جماع رأى ابن جنى فى خصائص العبارة المركبة قد اشتملت عليه مجموعة الأساليب والظواهر التى عدّدها تحت ما أطلق عليه (شجاعة العربيّة)، وقال: إنّ معظم ذلك إنما هو : الحذف ، والزيادة، والتقديم والتأخير ، والحمل على المعنى ، والتحريف" [٣٦٠/٢ ، وانظر تفاصيلها الكثيرة فى الصفحات التالية من نفس الكتاب]. وهى مجموعة من الظواهر ينتمى بعضها إلى التركيب وبعضها إلى الدلالة وبعضها إلى صورة من التنويع فى الصيغة الصرفية ، ولكنها جميعًا تقف وراء مبدأ ابن جنى فى عدم الربط بين التزام الصحة المعيارية وامتياز العبارة من الوجهة الأدبيّة .

تلك هى (**طبقات الدلالة**) - إن جاز التعبير - أو طبقات دلالة اللفظ على المعنى عند ابن جنى بدءًا من دلالة الصوت المفرد وانتهاء بدلالة العبارة المركّبة، ومرورًا بدلالة الصيغة الصرفية ثم المفردة اللغويّة فى حقيقتها ومجازها ، لم نحفل بمواقع الحديث عنها فى الخصائص ، أعنى لم نحفل بمواقعها فى أى جزء من أجزاء الكتاب كانت .

هذا ، ولم أنظرْ إلى بقية القضايا التى وقف عندها الكتاب ، وهى كثيرة، وذلك وفاء بما التزمت بهِ من قبل من قصر الحديث على الفكر البلاغىّ فيه .

* * *

هنا لابد من وقفة قصيرة جدًا عند هذه المستويات لنسّجل أنّ تأمّلها يكاد يكشف عن جوهر الفرق بين ابن جنى وعبد القاهر ، أو هو يدفع إلى الإحساس بمثل هذا الفرق ، مما أوجد نوعًا من العلاقة المزدوجة بين الرجلين، وأعنى بازدواج العلاقة تأثر عبد القاهرة بابن جنى ومتابعته له من جهة ، ومعارضته والإعلان عن مخالفته ، مع عدم الجهر باسمه ، من جهة ثانية .

مبعث الفرق الجوهرى بين الرجلين فيما يبدو لى - فضلا عن اعتزالية ابن جنى وأشعرية عبد القاهر - أن ابن جنى لغوىّ ، أما عبد القاهر فنحوىّ - أعرف أن التداخل قائم بين المجالين - اللغوىّ أرحب أفقًا وأمدُّ بصرًا ، نعم .. وسّع عبد القاهر - كما هو معروف - فى استخدام النحو وعوّل كثيرا على إمكانات التركيب . لكن شتان ما بينه وبيْن ابن جنى، عبد القاهر أقرب إلى الإيمان بأن **الأسلوب هو استغلال خاصّ لممكنات النحو** a Particular Exploitation of a Grammar Possibilities بينما يذهب ابن جنى إلى أن

الأسلوب انحراف عن النمط Deviation From the Norm ، وانظر إلى حديث عبد القاهر عن (النظم) : " ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضعَ الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله" [الدلائل ٨١] ثم انظر إلى حديث ابن جنى عن مجازفة الشاعر وارتكابه الضرورات وجوره وتعسُّفه فى تناول اللغة، على غير جهل بقواعدها [الخصائص ٣٩٢/٢] لتعلم فرق مابين الرجلين فى رحابة النظرة إلى العبارة الأدبية .

وبوسعك أن تنظر إلى جهة اهتمام كلٍّ منها بإعجاز القرآن .. عبد القاهر يحطب – غالبا – فى حبل قراءات الجماعة ، وابن جنى يحطب فى حبل القراءات الشاذة، انظر إلى تردد كلمة (الانحراف) وعدد من صيغ المادة فى حديثه عن بلاغة هذه القراءات ، وهو الحديث الذى يكشف عن عبقرية بلا حدود فى الإحاطة بشوارد اللغة والقدرة على التقاط الأسباب المجوِّزة للأساليب التى جاءت عليها شواذ القراءات . انظر إلى حديثه عن بعض مواضع الالتفات [المحتسب ١٤٥/١، ٢٣١/٢. وراجع : نظرية اللغة فى النقد العربى ٢٦٧ ومابعدها] . وإلى حديث فى تخريج أول الآية (٣١) من سورة البقرة بقراءة يزيد البربرى (وعُلِّمَ آدمُ الأسماءَ كلَّها) حيث يسجل بحثا قيّما فى كيفية العناية بالمفعول عنايةً تصل بالمتكلّم إلى حذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول وتحويل المفعول إلى نائب فاعل [المحتسب ٦٤/١ ، ٦٥] .

ذلك مدًى فى تحليل النص لم يصل إليه عبد القاهر ، على مكانته وعلمه ، لكنّ ما هو أخطر من ذلك ، وهو مبعث الصدام بين الرجلين – من جانب عبد القاهر بالذات – هو رأى ابن جنى فى دلالة الصوت .. الصوت المفرد والأصوات المركّبة فى وحدات صرفية ..ومر بنا أن ابن جنى يحمّل الصوت – مفرده ومركّبهُ – قيمة دلالية معينة ، وهى قيمة غير هينة يُسندها

إلى طبيعة الصوت المفرد وإلى خصوصية الصيغة . حديث الصوت وقيمته – الذى يرجعنا إلى تعريف ابن جنى للغة : أصوات يعبر بها كلُّ قوم عن أغراضهم – يقودنا فى الوقت نفسه إلى سؤال تُعدّ إجابته – فى تقديرى – قنبلةً من الوزن الثقيل .

السؤال هو : مَنْ الذين قصدهم عبدُ القاهر وخصّهم بهجومه وهو ينعى على أولئك الذين جعلوا للفظ قيمة فى ذاته ، أو لبّسوه بدلالات ذاتية فيه ؟ الجواب عند المرحوم الأستاذ محمود شاكر هو : المعتزلة وبالذات القاضى عبد الجبّار [تقديمه للدلائل ص هـ] ، الجواب عندنا ، وبناء على براءة عبد الجبار من هذه التهمة ، هو: ابن جنّى ، بشرط أن نعترف بخطأ عبد القاهر فى توجيه كلامه ، أو – إذا شئنا التخفيف من حدة الصدام – قلنا بشرط أن نعترف باختلاف المنطلقات بين الرجلين ، عبد القاهرة يرى أن دلالة الألفاظ – أى تلبّس اللفظ بدلالته – مسألة عرفية ، اعتباطية فى الأساس ، فلو أن واضع اللغة قال (ربض) مكان (ضرب) لما حدث شيء، [الدلائل ٤٩] ، ولتقبلنا الكلمة بمعناها الذى أعطاه لها واضع اللغة .

الأمر ليس كذلك عند ابن جنى .. فحروف الكلمة وأصواتها لها دلالات ذاتيّة، تشكل فروقًا بينها ، حتى المتقارب منها ، وقد أثبت ذلك فى أبواب (الاشتقاق الأكبر) وفى أبواب أخرى منها (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى) و(إمساس الألفاظ أشباه المعانى) و (قوة اللفظ لقوة المعنى) وغيرها .. وهى آماد لم تكن محلاً لاهتمام عبد القاهر ، بل لم تكن محلّ قبوله أصلا .

التقابل بين رأيى الرجلين على النحو الذى نسوقه الآن هو الذى حدا بنا إلى تفجير هذه القضية ، وهى أن حديث عبد القاهرة وانتقاده فى مسألة اللفظ كان موجها إلى ابن جنى ، فهو عندنا صاحب النظرة المضادة التى دأب عبد

القاهر على مقاومتها والسخرية منها ، هذه السخرية التى تصوّر المرحوم الأستاذ محمود شاكر أن وجهتها الأولى كانت القاضى عبد الجبار صاحب كتاب(المغنى) ، بينما هى فى الحقيقة موجهة إلى ابن جنى صاحب النظرة المضادة وفقا لدعوي عبد القاهر .

لقد قلت إن ثمة علاقة مزدوجة بين عبد القاهرة وابن جنى ، تقوم على تأثرّ واسع بالسّابق من جانب اللاحق ، مع إبداء هذا اللاحق للخلاف والمعارضة فى بعض المسائل دون ذكر لمن يعارضه .. وسبق أن رأينا نموذجًا لتأثر عبد القاهر بابن جنّى وأخذه عنه ، وذلك بمناسبة الحديث عن الأبيات الحائيّة التى احتدم حولها جدل النقاد :

ولما قضينا من منى كلّ حاجةٍ ومسّح بالأركان من هو ماسح
(الأبيات)

وقد قلت وقتها إن تأثرّ عبد القاهر بابن جنى " نتيجة لا تقبل النقاش" وأنا اعتذر عمّا قد يكون من حدّة فى العبارة ، ولكنها الرغبة فى التأكيد مع عدم إضاعة الوقت ، والآن لا أجد إلاّ نفس الرأى بالنسبة للمقصود بهجوم عبد القاهر على من أسماهم بأصحاب اللفظ أو دعاته أو القائلين بأن له مزية فى ذاته . أقول : لا أجد إلاّ أن يكون المقصود هو ابن جنى ، **مع رأى وموقف لابدّ من تسجيلهما** ، أما الرأى فهو أن عبد القاهر قد أخطأ فى تصوير منحى ابن جنى فى قيمة الصوت ودلالته وكذلك دلالة الصيغة الصرفية ، إذْ صوّر هذا المنحى على غير حقيقته . وبالتالى يكون فهم عبد القاهر صحيحًا على إطلاقه ، لكنه يكون خطأ إذا كان المقصود به ابن جنى .

وأما الموقف فهو القولُ برأى ابن جنى على نحو ما قدّمه فى (الخصائص) وطبقه فى كتبه الأخرى [ينظر – على سبيل المثال – كتابه (الخاطريات) ص١٠٦ ، ١٦٧].

كما أننى أرى الرأى نفسه – أعنى تأثرّ عبد القاهر بابن جنى ونقله عنه – فى حديث الأخير عما سمّاه (إصلاح اللفظ)، وسياق الحديثِ عند الرجلين قريب من قريب ، أمّا حديث ابن جنى فمتّسق مع مبدئه فى أن العرب تعنى بألفاظها خدمة لمعانيها.

وأما عبد القاهر فقد جاء حديثه موزعًا على أكثر من موضع فى الدلائل ، ولكنه فى جميع المواضع يدور حول مبدأ مقارب وهو أن العبارتين عن المعنى الواحد إنما تفضل إحداهما الأخرى " بما توخى فى نظم اللفظ وترتيبه" [الدلائل ٢٥٨] أو بما لحقها من تغير فى النظم لا اللفظ [الدلائل ٢٦٥].

أما النموذج المتمثَّل به لدى الرجلين فواحد تماما من حيث بنيته ، وبصرف النظر عن اختلاف الكلمات .

وسوف أبدأ بنقل عبارات عبد القاهر فى ثلاثة مواضع ، وكلها تدور حول نفس المبدأ وتتعلق بنفس المثال ، ثم أختم بعبارة ابن جنى ، لكى يتأكد القارئ – وأعتذر عن المصادرة – أقول : لكى يتأكد القارئ من أنه لا يمكن فهمُ عبارات عبد القاهر – فى هذه السياقات – حقّ الفهم إلاّ بعد الرجوع إلى كلام ابن جنى ، بل أكثر من ذلك : لكى يعرف القارئ بنفسه الفرق بين (الأصل) و (الصورة) كما هو التشبيه الشائع .

عبد القاهر (١)

" لا بكون لإحدى العبارتين مزيّة على الأخرى حتى يكون لها فى المعنى تأثير لايكون لصاحبتها ... نحو أن تقصد تشبيه الرجل بالأسد فتقول **(زيد كالأسد)** ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول **(كأن زيدًا الأسد)** فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد ، إلا أنك تزيد فى معنى تشبيهه به – أى بالأسد – زيادة لم تكن فى الأول " [الدلائل ٢٥٨] .

عبد القاهرة (٢)

" أما إذا تغير النظم فلابد حينئذ من أن يتغير المعنى ... على ما رأيت فى المسألة التى مضت الآن ، أعنى قولك **(إنّ زيدًا كالأسد)** و **(كأنّ زيدًا الأسد)** ذاك لأنه لم يتغيّر من اللفظ شيء وإنما تغير النظم فقط . وأما فتحك (إنّ) عند تقديم الكاف وكانت مكسورة فلا اعتداد بها لأن معنى الكسر باق بحاله" [الدلائل ٢٦٥] .

عبد القاهر (٣)

" إنك تقول **(زيد كالأسد)** .. فتجد ذلك تشبيها غُفْلاً ساذجا ، ثم تقول **(كأنّ زيدًا الأسد)** فيكون تشبيها أيضا ، إلاّ أنك ترى بينه وبين الأول بونًا بعيدًا ، لأنك ترى له صورة خاصّة ، وتجدك قد فخّمتَ المعنى وزدتَ فيه " [الدلائل ٤٢٥] .

أما عبارة ابن جنى فكالآتى :

" ومن إصلاح اللفظ قولهم : (كأن زيدًا عمرٌو) ، اعلم أنّ أصل هذا الكلام **(زيدٌ كعمرو)** ثم أرادوا توكيد الخبر فزادوا فيه (إنّ) فقالوا **(إنّ زيدًا كعمرو)** ثم إنهم بالغوا في توكيد التشبيه فقدموا حرفه إلى أول الكلام عنايةً به

وإعلاماً أنّ عقد الكلام عليه ؛ فلمّا تقدمت الكافُ وهى جارّة لم يجز أن تباشر (إنّ) لأنها ينقطع عنها ما قبلها من العوامل ، فوجب لذلك فتحها ، فقالوا : (كأن زيدًا عمرو). [الخصائص ٣١٧/١] .

وكما نرى فإن المثال عند الرجلين واحد ، بصرف النظر عن (زيد وعمرو) عند ابن جنى و (زيد والأسد) عند عبد القاهر . ويمكننا على سبيل التوضيح أن نسمّىَ الانتقالات التى تدرجت فيها العبارة بـــ (الصوّر)، وأن نسمّى كلّ نقلة منها (صورة) ، كما ينبغى التنبيه إلى أن نصّ ابن جنى قد جاء مشتملا على صور أربع تنقلت بينها العبارة (ونحن نضيف ما جاء به عبد القاهر من صور للعبارة فى نصوصه الثلاثة ، مما يقابل بعض صور ابن جنى) على النحو التوضيحى التالى :

م	صور العبارة عند ابن جنى	الصور المقابلة التى استعملها عبد القاهر فى كل نصّ		
		النص الأول	النص الثانى	النص الثالث
١	زيد كـــ عمرو	زيد كـــ الأسد		زيدٌ كـــ الأسد
٢	إنّ زيدًا كـــ عمرو		إن زيدًا كـــ الأسد	
٣	كـــ إن زيدًا عمرو			
٤	كـــ أنّ زيدًا عمرو	كـــ أنّ زيدًا الأسد	كـــ أنّ زيدًا الأسد	كـــ أن زيدًا الأسد

ولا يخفى على القارئ كيف جاء نصّ ابن جنى متضمنًا الصور الأربع التى تنقّلت بينها العبارة ، فى مسلك يمكن وصفه بأنه (تحويلى) ، ثم كيف صحِب كلَّ صورة عنده شرحٌ كاف لمنحى التغيير فيها – أو التطوير – وعلّته ، والفائدة المترتبة عليه ، وذلك بخلاف عبد القاهر الذى لم يورد فى أىٍّ من نصوصه الثلاثة سوى صورتين فقط من الصور الأربع التى أوردها ابن جنى ، فى النص الأول والنص الثالث أورد الصورتين ١، ٤ أما فى

النص الثانى فقد أورد الصورتين ٢ ، ٤ وقد أشار فى النص الثانى إلى الصورة الثالثة التى يُفْتَرَضُ فيها بقاءُ (إنّ) على كسر همزتها . وبينما يسوق ابنُ جنى على نحو موضوعى علة الترقىّ الذى لحق بالعبارة ويشرحها فى كلّ حالة ، يكتفى عبد القاهر بمجموعة من الأحكام الانطباعية التى لا يمكن الإمساك بشىء منها ، كما لا يمكن عقد صلة بين هذه الأحكام وبين خصائص العبارة فى مستواها الفعلى .

هنا يبرز السؤال الذى لا يمكن تجنّبه ، وهو : **هل يمكن الشك فى أن عبد القاهر قد نقل فى هذه المواضع عن ابن جنى ؟!** أكثر من هذا : **هل يمكن فهم مراد عبد القاهر أو أمثلته فى المواضع المشار إليها دون الرجوع إلى ابن جنى؟**

* * *

وبعد فلم تكن المقارنة مع عبد القاهر هدفا فيما كتبته على سبيل التقديم للخصائص ، كما لم يكن تسجيل أخذه من ابن جنى هدفا أيضا ، لكن مقتضيات الأمانة هى التى فرضت ما ورد من هذا القبيل ، إذ كان من العدل أن ينسب إلى كل إنسان جهده وما قدمه على صفحة تاريخه.

وكما قلت فقد تخلّيتُ عن مبدأ تقديم كل جزء من الخصائص بأشهر ما فيه من موضوعات ، وعمدتُ مع الجزء الثالث إلى عرض الفكرة النظرية العامة لابن جنى ، أو تصوّره للغة الأدب ، وهو ما اقتضى إعادة النظر فى جميع أجزاء الكتاب .

أما هذا الجزء الثالث الذى نختتم به إصدار (الخصائص) فليس بأقلّ من سابقيْه ، فاقتطف منه – عزيزى القارئ – ما شئت من ثمار المعرفة

الناضجة الراقية التى أفرزها القرن الرابع الهجرى، لا فى لغة الأدب وحدها، ولا فى مستويات اللغة عمومًا ولكن فى الفلسفة والمنطق والكلام والمعارف النفسيّة وغيرها .

ولعل من أهم ما يلفت القارئ فى هذا الجزء ذلك الباب الذى عقده ابن جنى (فيما يؤمِّنه علم العربية من الاعتقادات الدينية) وهو منحى من البحث يكشف عن التداخل الوثيق بين البحث اللغوى والفكر الكلامى والدينى بصفة عامة ، مما هو معروف لدى المهتمين بهذا الجانب ، إذ كان على المشتغلين بالفكر الكلامى والدينى أن يوثقوا معرفتهم باللغة ، كما كان على المشتغلين باللغة أن يستغلوا معارفهم اللغوية فى حل ما يعترضهم من مشاكل الفكر الدينى ؛ وكانت النتيجة خصوبة وثراء فى جانبى الفكر واللغة على نحو ما يلقانا فى مؤلفات العمالقة من أمثال الفارسى وابن جنى وغيرهما .

عبدالحكيم راضى

أغسطس ٢٠٠٦